معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الإيطالية إلى العراق

الرحالة لياندرو الكرملي



ترجمها عن الإيطالية وعلق عليها:
الأب الدكتور بطرس حداد



المركز الأكاديمي للأبحاث

معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الإيطالية إلى العراق

معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الإيطالية إلى العراق

الرحالة لياندرو

ترجمه عن الإيطالية وعلق عليه

الأب الدكتور بطرس حداد

المركز الأكاديمي للأبحاث

معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الإيطالية إلى العراق

الرحالة لياندرو

ترجمه عن الإيطالية وعلق عليه: الأب الدكتور :بطرس حداد

التقويم اللغوي: د. حسين الوطيفي.

التنضيد: علي الحسناوي

تصميم الكتاب وغلافه: المركز الأكاديمي للأبحاث.

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث

بيروت - ٢٠١٣

website\\www.academyc2010.com
Email - masseralkab77@yahoo.com

توزيع: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

بناية الوهاد - شارع جان دارك

ص. ب8375 - بيروت، لبنان

تلفون: 350722/750872/344236 -1 -961+

تلفون + فاكس: 341907/342005/353000-1-961+

Email:tradebooks@all-prints.com
Website:www.all-prints.com

مقدمة المركز

تعد الرحلة عموما من أولى الأشكال التعبيرية المركبة والمكثفة التي استعملت ثنائية الكتابة بضمير الأنا والذات دون تردد، وتداول فيها باستمرار صورة الآخر وأبعاده الدقيقة عبر التمايزات والفروقات المنوعة، فهي نصا مملوءا بالمقارنات الكاشفة عما اعتادت العين على مشاهدته والنظر إليه.

وتتعمق اهمية النص الرحلي عند توظيفه في مجال الكتابة التاريخية بوصفه مادة أولية فهو من جهة يكتسب صفة المعاصرة المحكومة بعنصرين (الزمان والمكان لتقويم أهمية المصادر ودرجة فائدتها)؛ فالزمان متمظهر باستمرار وملازم دائم لتدوين الرحلة وتطوراتها وهو انعكاس مزمن لكل فعالياتها وانطباعاتها شبه اليومية، فيما المكان أيضا متجسد بشروطه الانموذجية الفاعلة المتمثلة بمركب قراءة الذات والآخر فغالب الموضوعات المنتخبة محكومة بشرط اكتشاف الذات وردم فجواتها والاماكن المجهولة فيها والكشف عن مديات الفروقات الحسية والمكانية والمناخية فيها وكل ذلك عبر المقارنة والمقابلة مع الآخر.

وربما تتداخل في النص الرحلي مجموعة من العيون المتنوعة بحسب الوظيفة ففيها العين الامبريالية والعين الاستكشافية والعين التبشيرية والعين الاستخباراتية الاستطلاعية والعين المعرفية العلمية والعين المناسكية الراحلة للحج. ولكل عين همومها وزواياها المهتمة بها التي ترقبها وتسعى

إلى الاجابة عنها عبر التقاطاتها اشباعا لحاجاتها الخاصة.

وتكتنز الرحلة فوائد تتجاوز حدود التاريخ إلى حق المعرفة الجغرافية؛ لتشخيصها المسالك والحدود الرابطة وتوصيفها للواقع الطقسي والمناخي، وتمتد فوائدها إلى حقول السيسيولوجيا والأنتربولوجيا للغنى الذي تحويه، والمتعلق برصدها لطبائع الناس وعاداتهم وتقاليدهم وبعض خصوصيات، ثقافتهم ومذاهبهم وكل ما يثير انتباه الرحالة، فالنص الرحلي في كثير من تفاصيله هو عبارة عن صورة بانورامية التقطت لمجتمع في مرحلة من مراحله .

لقد جرى التعاون مع الأب بطرس حداد من اجل ترجمة هذه الرحلة عن الايطالية للأهمية العلمية المضاعفة التي تمتلكها بوصفها نصا ومادة اولية للتعرف على العصر العثماني والرؤية التي كونها الأوربيين عنه عبر رحلاتهم المتعددة والتي فيها تركيز شديد على العراق وتوصيف أوضاعه المختلفة خلال المرحلة التي تعاني شحاً ملحوظاً في المصادر. وقد أنجز الأب الدكتور بطرس حداد عمله هذا على اتم وجه من حيث الترجمة والتعليق عليها؛ لكن مما يؤسف له ان المنية عاجلته قبل ان يرى هذا الكتاب نصيبه من الطباعة، وتقديرا لذلك الجهد المميز والمسيرة العلمية الحافلة فان المركز يسعى من خلال هذه الصفحات إلى تقديم عرض موجز لسيرة الراحل العلمية ودوره العلمي في مجال التأليف التدوين

ربما الإشكالية الأكثر تحدياً في معالجة الشخصيات ذات التأثير العميق في حقولها وتخصصاتها العلمية الدقيقة ان اغلب ما يكتب عنها يأخذ لاشعورياً صفة التبجيل والحفاوة المفرطة حد العاطفة الجامحة، التي تضيع فرصة التنقيب الفعلي في الكشف عن خبايا وعناصر القوة التي

أظهرت هذه الشخصية أو تلك، فالمنهج العلمي القويم يفرض ان تشرح تلك الشخصيات ويسلط عليها مبضع النقد الهادف والكاشف عن مضموراتها المستترة في الغالب والتي تعد ابرز مقومات تفوقها، لكن هذا لايعني مطلقاً التجريح او التقليل من المكانة العلمية.

فمثقفو الشرق المسيحيين عموماً ومسيحي العراق على وجه التخصيص مقومات وعناصر أسهمت في صياغتهم وإعدادهم بالصورة التي ظهروا عليها وتميزوا من خلالها، ويبدو ان هذا ليس مقتصراً على التاريخ الحديث أو المعاصر، وإنما مرحلة التاريخ الإسلامي أو العصور الوسطى بحسب التحقيب الأوربي وتحديداً العصر العباسي الذي برزت فيه فئة مميزة ومؤثرة في مجال الفكر والمهن والمواهب، وربما متابعة فهرست ابن النديم وتاريخ الحكماء والأطباء لابن أبي اصيبعة يشير إلى حجم ذلك التأثير واستقراره بوصفه عنصر من عناصر نمو التمدن وديناميكيته. والسؤال الذي يثار ما المقومات التي أودت إلى هذا التمايز والتفوق؟

يبدو إن جزءاً عظيماً من مسببات ذلك مرتبطة بالمقدمات أو الممهدات الأولى الدافعة نحو هذا التفوق العلمي، فثنائية الأغلبية والأقلية الدينية التي يعيشها نصارى العراق أو الشرق، وعلى الرغم من التفاوة الكمي الحاد الذي يحمله هذا التصنيف، فان فيه أبعاد سيكولوجية نفسية تحاول الأقلية ان تقاومه أو تعيد إنتاجه بالشكل الذي يجعل منها تعيش حال من التوازي والتناظر عبر التركيز على وجودها وتفوقها النوعي أمام أغلبية معيارها كمي كاسح، وبتفسير آخر هي إحدى أنواع الاستجابات الناجحة التي يقدمها مجتمع الأقلية الديني أو ألاثني أحيانا أمام تحدي الأغلبية الكمي، لكن كما هو معروف ان لقانون التحدي والاستجابة بيئة محددة يجب توافرها وتحققها من اجل تحقيق الاستجابة الناجعة والا بدون ذلك

الظرف والسياق التاريخي الحاكم فان نكوصاً وفشلاً في تحقيق المرامي قد يحدث، ويبدو ان عملية التفوق والتمايز هذه قد تحقق لها ظرفاً مساهم في رفدها بالبيئة الطبيعة المساندة لها، تمركز في ارتباطهم او صلاتهم بالعالم الغربي المتقدم عبر الكنائس والمراكز البحثية الأوربية اسهم كثيراً في منح جلهم فرص حقيقية للبحث والدراسة والتمرس العالي بإتقان أكثر من لغة تتعلق باختصاصاتهم الإنسانية، فضلاً عن تمرسهم باللغات الحية الرئيسة كالألمانية والانكليزية والفرنسية... الخ. كما أنهم تعاملوا بشكل علمي ومسؤول مع اللغات الشرقية القديمة مثل العبرية والسريانية والآرامية والسنسكريتية.. الخ وهي لغات تتطلب أجادتها قضاء سنوات طوال من الجلد والمطاولة من اجل التعاطي السليم معها.

فهذا الاتصال المعرفي المبكر بالغرب ومدارسه الذي حاز عليه النصارى منذ بواكير العصر الحديث لم يتحقق لغيرهم من العراقيين ألا في الثلاثينيات والاربعنيات من القرن العشرين عندما بدات عمليات الابتعاث المنظمة الى الجامعات الأوربية وهي بطبيعة الحال متأخرة ومحدودة مقارنة بالباحثين النصارى وابتعاثهم الى اوربا، فضلاً عن ذلك دور البعثات التبشيرية التي كانت تجوب البلد وهي تحمل معها وسائل التحديث كما اتضح ذلك في ادخال اول مطبعة الى العراق على يد الاباء الدومنيكان في الموصل.

ويبدو ان هنالك اكثر من جيل من الباحثين والعلماء النصارى اللذين تشربوا بأساليب البحث الحديثة وكونوا البدايات الأولى لتشكل جيل المثقفين النصارى في تاريخ العراق الحديث، وربما يكون الاب انستاس الكرملي من ابرز رواد الجيل الاول الذي عرف بتوجهه الموسوعي العام وتوظيف بعض التقنيات الحديثة في الكتابة والنشر كما انه اسهم في تأسيس

مجلة تراثية تجاوزت أصداءها العراق والبلدان العربية وهي مجلة لغة العرب ذائعة الصيت، والتي احتوت على مشاركات استشراقية وعربية وعراقية. فيما ينتمي الأب بطرس حداد الى الجيل الثاني من الباحثين المثقفين النصارى وهو جيل عرف بتخصصه الدقيق وغزارة إنتاجه العلمي ففيه ظهر الاب يوسف حبي والاب البير البونا، فقد شكل هؤلاء الثالثة ابرز رواد هذا الجيل.

يبدو ان الاب بطرس حداد لم يخرج اسلوب تعليمه او تكوينه الفكري من آلية النظام اعلاه فهو قد اكمل تعليمه العالي في روما وبقي فيها سنوات طوال الى ان أتم الدكتوراة في التاريخ الديني وعاد للعراق في مطلع الستينيات، ويبدو ان التميز الهام الذي عرف به الاب بطرس اكتراءه لتجربة الجيل الاول من المثقفين النصارى وبناءه عليها بشكل متراكم فهو قد اجاد اكثر من لغة اجنبية وذلك مايبوح بها منجزه الذي تراوح بين (٢٠) كتاباً في الترجمة من لغات مختلفة او التأليف والتحقيق فضلاً عن ابحاثه المتعددة التي نشرت في اكثر من مجلة عربية واجنبية وفيها الكثير من العمق والآراء الجديدة، فضلاً عن توجهه الأخير الذي انصب على متابعة نتاجات الرحالة الأجانب وماكتبوه عن بغداد والعراق وترجمة ذلك إلى العربية في سلسلة حملة الكثير من الرحلات الأجنبية. وفيما يأتي محاولة لاعطاء ببلوغرافيا وجرد عام عن المنجز الذي سطره الدكتور الراحل خلال مسيرته العلمية :

١- المُرشد إلى القدّاس الكلداني، بغداد عام ١٩٧١.

٢ - الرهبنيات النسائية في الكنيسة الكلدانية، بغداد عام ١٩٧٣.

٣ - رهبانية بنات مريم الكلدانيات، بغداد عام ١٩٧٣.

٤ - أخواتكم الراهبات الكلدانيات، بغداد عام ١٩٧٣.

٥ - الفاتيكان (ترجمة)، بغداد عام ١٩٧٤.

٦ - البُشرى السارة بغداد عام ١٩٧٥.

٧ - التاريخ الصغير (ترجمة عن السيريانية) بغداد عام ١٩٧٥.

٨ - الشهر المريمي بغداد عام ١٩٨٥ وطبع بعدة طبعات في العراق.

٩ - فهارس المخطوطات السريانية والعربية في خزانة الرهبنة الكلدانية بالتعاون مع الأب (المطران) جاك إسحق (فى جزئين) بغداد عام ٢٠٠١.

١٠ - يسوع بحسب متى (طُبع بمناسبة صلاة الأربعين للأب فرنسيس المُخلصي).

١١ - مار بثيون، بغداد عام (٢٠٠٠).

١٢ - صفحات ناصعة (عن البطريرك شيخو في طبعتين ١٩٧٢ و ١٩٨٠).

١٣ - تأملات شهر قلب يسوع الأقدس، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٩٨.

١٤ - يوميات الحرب العالمية الأولى، الطبعة الأولى أمريكا، بغداد ٢٠٠٣.

١٥ - قديسة ريتا (طبعتان).

١٦ - مار إيليا الحيري، بغداد عام ١٩٨٨.

١٧ - كنائس بغداد ودياراتها، حيث يعد مرجعًا في تاريخ كنيسة بغداد الحديث.

١٨ - عبر من كتب التراث ... بغداد ٢٠٠٣.

١٩ - أبرشية عقرة الكلدانية (تحقيق)، بغداد ٢٠٠١.

٢٠ - مختصر الأخبار البيعية (تحقيق ونشر)، بغداد عام ٢٠٠٠.

٢١ - رحلة ديللافالية إلى العراق (السائح العاشق)، ترجمة عن الإيطالية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ الطبعة الثانية عام ٢٠٠٦.

٢٢ - يوميات الحرب العالمية الثانية، الطبعة الثانية الذي طبع ضمن منشورات كنيسة مار كوركيس الكلدانية، بغداد ٢٠٠٣.

٢٣ - المؤسسات البطريركية (ترجمة عن الفرنسية).

٢٤ - عِبر من كتب التراث (وهى مجموعة مقالات نشرت في مجلة الفكر المسيحي في باب عبرة من الأمس. ٢٠٠٣).

٢٥ - رحلة من بغداد إلى حلب للفرنسي روسوّ، بغداد ٢٠٠٧.

٢٦ - القداسى الكلدانى (بحث فى اصالتة) تأليف البطريرك (عبديشوع الخياط) ١٨٢٧ _ ١٨٩٩ تحقيق وتعليق والإعداد للنشر، الاب د. بطرس حداد، بغداد ٢٠٠٩.

٢٧ - رحلة فنشنسو الى العراق فى القرن السابع عشرة، ترجمة من الايطالية، نينوى ٢٠١٠.

٢٨ - نُبذة في تاريخ المدرسة الكهنوتية للخوري داود رمو، من منشورات المعهد الكهنوتي بغداد ٢٠٠٢، (تحقيق).

٢٩ - الخواطر للخوري داود رمو (تحقيق وتعليق).

٣٠ - فهرس مخطوطات الكلدانية فى كركوك بغداد ٢٠٠٣.

٣١ - شهر ايار لمريم البتول بغداد ١٩٨٥.

٣٢ - الخورى انطون ازيونى (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) من اصدارات رهبانيه بنات مريم الكلدانيات بغداد ٢٠١٠.

الدكتور نصير الكعبي

مدير المركز الأكاديمي للأبحاث

مقدمة المعرب

يسعدني أن أقدم للقراء الكرام والباحثين في تاريخ عراقنا العزيز نصاً جديداً لرحلة مهمة تكاد تكون مجهولة.

إنها مهمة لما فيها من أخبار كتبها شاهد عيان عاش في بغداد واختلط بكبار القوم فسجل بعض ذكرياته في هذا الكتاب على عهد واليها الشهير أحمد باشا بن حسن باشا (ت ١٧٤٧) الذي عرف بميوله إلى الاستقلال عن إرادة اسطنبول بحيث نرى كاتب الرحلة يدعوه بالملك أحمد.

وهي رحلة مجهولة لأنها مكتوبة بلغة إيطالية قديمة ولم تترجم إلى لغات - أخرى على حد علمي - ليتيسر لقرائنا مطالعتها.

وقد رأيت أن الأب نرسيس صائغيان اطلع عليها واعتمد على ما ورد فيها من معلومات في مقالة له في مجلة النور البغدادية ٢ (١٩٥١) ٢٣ وما يليها، وكذلك الأستاذ يعقوب سركيس في كتابه (مباحث عراقية) ١ : ص ١٤٥، ٣٤٩، ٣٥٢، والنسخة التي اعتمدت عليها هي بالأصل من مكتبته الخاصة التي آلت إلى مكتبة المتحف العراقي، فعلى روحه الرحمة.

صاحب الرحلة:

إنه لياندرو الكرملي، واسمه الرهباني الكامل: الأخ لياندرو للقديسة سيسيليا من الرهبان الكرمليين الحفاة.

إيطالي الأصل، ولد في جنوة سنة ١٧٠٢ وانتمى إلى الرهبانية في نيس فأعلن نذوره سنة ١٧٢٥ ، وبعد عشرة أعوام أرسل إلى الشرق فخدم بعض الوقت في همدان (إيران) حيث كان لهم دير، ثم انتقل إلى بغداد وكان فيها دير للكرمليين منذ وقت قريب فبقى خمسة أعوام متتالية، وفي سنة ١٧٤٦ رجع إلى وطنه.

ثم عاد إلى الشرق فخدم في ديار بكر وانحدر إلى الموصل، إذ رافق الآباء الدومنيكان الإيطاليين في أول قدومهم إلى الموصل، ليحلوا محل الآباء الكبوشيين الذين سبقوهم في الخدمة في أم الربيعين، لكنهم اضطروا إلى تركها قبل سنوات.

وعاد لياندرو إلى إيطاليا وبقي هناك إلى أن وافته المنية في روما سنة ١٧٨٤.

مؤلفاته وأفكاره:

عندما رجع إلى إيطاليا انكب على تأليف كتابه عن رحلته وانتهى منه سنة ١٧٥٢ ، وهذا عنوانه: (بلاد فارس أو الرحلة الثانية للأخ لياندرو دي سانتا سيسيليا الكرملي الحافي إلى الشرق كتبه بنفسه وقدمه إلى صاحب السمو الأمير كارلو ارشيدوق النمسا) طبع في روما سنة ١٧٥٧ ، وللدقة نقدم عنوانه الأصلي:

Persia ovvero secondo viaggio di f. Leanoro di santa Cecilia carmelitano scalzo delloriente. Scritto dal medesimo dedicates a sua altezza serenissima il principe Carlo arciduca d'Austria in Roma، mocclvil (١٧٥٧ =).

إن قوله (الرحلة الثانية) يعني أن له رحلة أولى، وقد بحثت عنها فلم أعثر عليها.

ونقرأ في مطاوي هذه الرحلة الثانية إن المؤلف يذكر أكثر من مرة بأن له رحلة ثالثة مخصصة كلها لبلاد ما بين النهرين من ديار بكر ونزولاً إلى البصرة فهي مهمة جدا لقرائنا، لكني لا أعلم إن كانت قد رأت النور، لأني لم أجدها على الرغم من بحثي الطويل عنها.

يقدم لنا لياندرو صورة حية عن الحياة الاجتماعية والسياسية في بغداد، وبصورة خاصة عن حياة البذخ في قصر الوالي، فالكاتب كان معجباً بأحمد باشا فيصفه بأجمل الصفات: القائد الأكبر المحنك، الرجل الشجاع، الوالي الجريء...

ويقدم لنا أنموذجاً واقعياً عن العلاقات بين الطوائف المسيحية التي كانت تتصرف انطلاقا من مصالحها الخاصة وليس فيها أي أثر من المحبة التي أوصى بها السيد المسيح أتباعه.

وقد كانت أيام وجود لياندرو في ربوع بغداد مدة صراع طائفي بين المسيحيين، وتكفي قصة كنيسة الكلدان في محلة الميدان مثالاً على ما أقول.

ومؤلف هذه الرحلة هو أقدم من تحدث عن تحرشات نادر شاه في العراق، وهو الأقرب تاريخياً إلى حصار نادر شاه لمدينة الموصل، والحقيقة كما نراها في نص هذه الرحلة أن بغداد كانت عقدة في تفكير القائد الافشاري.

والأب لياندرو يمثل الطيبة التي عرف بها الشعب الإيطالي هذه الطبيعة التي اختبرتها أنا شخصياً عندما درست في إيطاليا.

فلا نجد في سطور الكتاب عنجهية وطنية ولا نظرة متعالية. وثقافة الرجل محدودة فهو لا يذكر الرحالين الأقدمين ولا الشعراء، ووجد مرتين كتابات تاريخية، الواحدة باللاتينية في طريق (تاكي) أي بين كرمنشاه وبغداد لكنه لم ينقل نصها للقراء، ولذلك يعترف بتواضع رهباني: "أُقِرُّ بإهمالي إذ لم أنقل الكتابة لأ ذكرها هنا".

والمرة الثانية عندما زار الكوفة فادعى أنه رأى كتابة قبطية، بينما لا توجد أية علاقة بين اللغة القبطية وهذه المدينة العريقة.

تمسك المؤلف باستعمال التسميات القديمة: فيسمي الموصل نينوى، وبغداد بابل، واسطنبول القسطنطينية، ولإعجابه العالي بأحمد باشا فقد توّجه وأعلنه ملكاً شاءت إسطنبول أم رفضت!..

شكري الجزيل لكل من ساعدني وأمدني بالمراجع: أذكر بالشكر والتقدير الأستاذ قيس حسين رشيد رئيس الهيئة وكالة ومدير التحريات في هيئة الآثار، كما أشكر الدكتورة وسن حسين محيميد لاستعدادها الدائم لمساعدتي، بارك الله فيها وفي كل الخيرين.

أملي أن تكون ترجمة هذه الرحلة إسهامة جديدة لخدمة الباحثين، والله أسأل أن ينتفعوا بها، وله الحمد الدائم على توفيقه.

بغداد ـ كانون الثاني ـ ٢٠١٠

الأب د. بطرس حداد

الاستعداد للرحلة:

لو مكثت أياماً أخرى في جنوة[1] لتسلمت هناك الرسائل التي وجهها إليّ الأب الرئيس العام على رهبانيتنا، وفيها يأمرني أن أشد الرحال إلى بابل[2] (= بغداد) لأقوم بمرافقة النائب الرسولي المعين في تلك الحاضرة وهو من أبناء رهبانيتنا، لكن الذي حدث أني سافرت قبل أن أتسلم الرسائل المذكورة فما أن وصلت إلى روما حتى بلغوني بالأمر شفهياً فقبلته عن طيبة خاطر لكني طلبت أن ينعم عليّ بأن أقضي الشتاء المزمع أن يحل قريباً ليس لتأجيل السفر والإبحار في وقت أفضل، بل لأكون قريباً من أخي، وأرى مدى نجاحه في حياة الابتداء الرهباني، لأنه تسربل بالثوب الرهباني في ٢٩ أيلول سنة ١٧٣٣ وقد تفضلت الرئاسة فوافقت على طلبي....

في هذه الأثناء كتبت إلى السيد بيترو كومبيان Pietro Compian ليخبر بدوره السيد جياكومو ديكوجيس Giacomo Decugis ليبلغاني تعليماتهما بخصوص السفر قبل مبارحتي روما.

كما بدأت بجمع الأشياء التي كنت أظنها ضرورية لمهمتي الجديدة.

وأخبرني السيد ديكوجيس أن لي فسحة من الزمان قبل الرحيل تمتد إلى حزيران عندما سيقلع إلى الأسكندرونة.

---

(١) مدينة في إيطاليا وميناء مهم على البحر الليغوري.

(٢) إن غير واحد من الرحالين الأقدمين ذهبوا إلى أن بغداد هي بابل وهذا وهم ظاهر ولذلك وضعنا اسم بغداد عوضاً عن اسم بابل الذي يتكرر في الكتاب.

في نهاية شباط ١٧٣٤ إستطعت أن أعود إلى جنوة مسقط رأسي لأعانق والدي، ثم عدت إلى ديري ضمن أبرشية نيس[١] Nizza حيث يحتفظ إخوتي الرهبان بأيقونة للعذراء مريم هي موضوع إكرام المؤمنين، إذ يأتون من كل حدب وصوب طالبين بركتها، وكنت منذ نعومة أظفاري أرتاح بالصلاة في ذلك المزار، فأردت أن أمضي هناك وقتي إلى منتصف آيار بالاختلاء والصلاة لأنال من الرب الإله - بشفاعة العذراء عليها أفخر السلام - عونه في رحلتي القادمة.

بعد ذلك إنتقلت إلى Villa Franca وركبت البحر في جنوة على سفينة فيلوكه[٢] Filuca، وبوقت قصير وصلت إلى مرسيليا[٣] فنزلت إلى الميناء وإذا بعدد من الأصدقاء في انتظاري، فقد أرادوا أن يصحبوني إلى ديرنا، فنزلت ضيفاً، على إخوتي الرهبان الذين استقبلوني بمحبة ولطف.

إتصلت بالقبطان ديكوجيس الذي جاء بي إلى مرسيليا فقبلني على سفينته المتوجهة إلى الشرق بصفة مرشد المسافرين الديني، ويمنحني لقاء ذلك ثمانية سكودو[٤] في الشهر مع الطعام إضافة إلى غرفة مع القبطان نفسه، لأن الرجل أراد أن يكرمني أكثر من الرهبان الآخرين الذين جاؤا معنا. . . . كما أن السيد كومبيان المذكور آنفاً شاء أن يعبر عن رغبته بإكرامي بطرق مختلفة في أثناء وجودي في مرسيليا، وزودني برسالة لطيفة

(١) نيس ميناء فرنسي مهم على البحر الأبيض المتوسط.

(٢) فيلوكه من الأسبانية Faluca مركب طويل يسير بالأشرعة والمجاذيف.

(٣) مرسيليا ميناء فرنسي مشهور على البحر الأبيض المتوسط.

(٤) لفظة سكودو تعني بالأصل الترس Scutum وقد اطلقت على عملة صور عليها الترس على عهد الرومان، أنظر الكرملي: النقود: ص ١٤٨.

موجهة إلى أخيه الذي يعمل في طرابلس سوريا، وفيها يأمره بأن يعطيني عند الضرورة كل ما أحتاج إليه.

كان موعد إقلاعنا اليوم الأخير من تموز وهو عيد القديس لورنس[1] فسحبت المرساة، ونشرت الأشرعة للريح، وبدأنا السفر، فمضت السفينة تمخر البحر، فمررنا بقبرص... ووصلنا أخيراً إلى اسكندروت...

إن السلطان عندما يستعد للحرب في أطراف حلب أو في منطقة بغداد فإنه يجمع العتاد الضروري في هذا الميناء، ثم تحمل في البر وتنقل إلى الفرات الواقع عل مسافة أربعة أيام شرق حلب، ثم تنقل عن طريق الفرات إلى بغداد.

أما البارود والقنبرات وآلات القتال المختلفة فتحملها الجمال إلى المكان المطلوب.ولقد رأيت بعض القنابل في ذلك الساحل لكني لم أعرف إلى أية جهة مخصصة.

(ثم يزور أنطاكيه):

عدنا من زيارة أنطاكيه فاجتمعنا إلى بعضنا وسرنا في طريق حلب، ومررنا بقرى عديدة ليس فيها ما يجلب الانتباه، ولذا لن أتوقف عند وصفها. ويعد ثمانية عشر يوماً من مبارحتنا مرسيليا وبضمنها عشرة أيام قضيناها في البحر وصلنا إلى حلب... رأينا الفرصة سانحة للسفر إلى

(١) القديس لورنس شماس استشهد سنة ٢٥٨م.

دياربكر[1] برفقة الأب قسطنطين الكبوشي[2] الذي كان يعمل هناك.

فبعد أن استأذنا القنصل الفرنسي وودعنا القبطان التحقنا بقافلة كبيرة، وانظم إلى القافلة عسكري كبير من جماعة الباب العالي يحمل رتبة قبوجي باشي[3].

ظن هذا الرجل أننا نحمل معنا كمية كبيرة من الخمر والمشروبات الروحية المختلفة، فتقدم منا وتودد إلينا وأظهر لنا احتراماً كبيراً، ونحن لم نكن نفهم منه شيئاً إلا بالإشارات، وكان في خدمته ثمانية رجال.

لذا رأينا أن نصادقه من أجل أن يذود عنا عند الحاجة، وكان مع الأب الكبوشي قنينة من مشروب روحي له فأخذها وشرب ما فيها وحده!.

في إحدى الليالي - وكنا قد نمنا - جاء الرجل باندفاع يطلب شراباً وخبزاً وجبناً ليأكل فلبينا طلبه ومضى ثم عاد، وهكذا أقلق راحتنا مع العلم أننا كنا على وشك أن نعبر الفرات في صباح اليوم التالي.

وبعد أن مضينا مسافة مرّ من أمامنا القبوجي المذكور فتجاهلنا ولم يسلم علينا كما كان يفعل عادة، وظننا للوهلة الأولى أنه صدر منا ما

---

(١) ديار بكر وتعرف باسم آمد، أنظر الحموي: معجم البلدان ١ :٦٦، ٢ : ٦٢٦.

(٢) هم رهبان من اتابع طريقة القديس فرنسيس الاسيزي، عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى القلنسوة التي تغطي رؤوسهم Cappuccio (كاسبوشيو) وكان لهم اديرة في دياربكر وفي ماردين وفي الموصل أيضاً.

(٣) قبوجي باشي (تركية) أي رئيس البوابين وهو موظف في البلاط العثماني كالحاجب يهتم بدخول أصحاب المناصب لمقابلة السلطان ويحمل الأوامر السلطانية إلى الولايات.

أغضبه ولم نعرف السبب...

بعد أن عبرنا نهر الفرات بالقوارب اجتمع أفراد القافلة وانقسموا على مجموعات: وجهة بعضها الرها[1] ونينوى[2] (=الموصل) وبغداد.

أما نحن الذين كانت وجهتنا ديار بكر فإن مجموعتنا كانت قليلة العدد إذ ليس فيها أكثر من ستين إلى سبعين جملاً فرحلنا في تلك الليلة، وما أن سرنا ثلاث ساعات أو نحو ذلك حتى هجم على القافلة لصوص أكراد فقتلوا رجلين وسرقوا حملين من البضائع.

وما إنْ بزغت الشمس في الصباح حتى بلغ أسماعنا وجود قطاع طرق على بعد ثلاث ساعات، وإن القافلة الأخرى التي هي أكثر عدداً منا قد سُرِقَتْ بدورها.

كان قائد قافلتنا يحمل بندقية من نوع Archebugio[3] وقد سأله تاجر من بين المسافرين إن كان عنده كمية حسنة من البارود والطلقات فأجابه بنعم؛ لأن ذلك التاجر كان عنده كمية كبيرة وأراد أن يعطي منها.

كان كل المسافرين بحال لا يحسدون عليها ولا سيما نحن لعدم فهمنا ما كان يجري حولنا إلا بالإشارات المبهمة.

(١) مدينة قديمة من مدن بين النهرين، سماها سلوقس الأول اديسا وكانت عاصمة مملكة مستقلة اسمها أورهاي أو اوسرين حكمها الملوك الأباجرة.

(٢) إنه يسمي الموصل باسم نينوى كعادة الرحالين الأقدمين، وفضلنا استعمال اسمها الحالي.

(٣) سلاح ناري قديم كان يحمل على الكتف عند استعماله.

وعلى الرغم من ذلك مضينا في رحلتنا وقد سلمنا أمرنا لله، وصلنا إلى موضع رأينا فيه رجلين مقتولين ممدين على الأرض، ثم التقينا بالجمالين، وقد نزعوا عنهم ألبستهم، ثم رأينا قرب جدول ماء القافلة رجلين، مجروحين بطعنة رمح، فقام زميلنا الأب قسطنطين بتضميدهما وأكملنا المسير بين الجبال.

وكنا نرسل الطلقات في الهواء طيلة الليل، وهذه عادة منتشرة بين القوافل كلها لكي تشعر قطاع الطرق المنتشرين بأن القافلة مزودة بما يكفي من البنادق وبأنها منتبهة ويقظة.

الكلك:

وصلنا أخيراً إلى ديار بكر، وعلى الرغم من أني مكثت فيها بضعة أيام لكني لن أتوقف عند وصفها إذ أترك ذلك للجزء الثالث من رحلاتي[١]، ولهذا أكمل وصفي لهذه الرحلة قائلاً: بأني ركبت النهر في مركب خشبي خاص يسمى كلك[٢]، وها أنا أشرح طريقة إعداده: يصنع الكلك من أعواد دقيقة طولية وأخرى مثلها ترتب فوقها عرضياً، وتصّف تحتها وتربط بها نحو مائتي قربة أو أكثر منفوخة بالهواء، على أن تكون فوهاتها متجهة إلى الأعلى من أجل إعادة نفخها عند الحاجة إذا تسرب الهواء منها.

---

(١) يخبرنا الرحالة بأن له جزءاً ثالثاً خاصاً بوصف بلاد ما بين النهرين وسيكرر كلامه أكثر من مرة حتى آخر صفحة من هذه الرحلة.

(٢) الكلك أو الرمث أو الطوف إنتشر استعماله منذ العصور القديمة، ويرى في بعض المنحوتات الآشورية. أنظر: سليم طه التكريتي: الكلك. مجلة التراث الشعبي، العددان، ١١ ـ ١٢ (١٩٧٠) ص ٨٣.

ويبلغ طول الكلك أربعين قدماً، وعرضه نحو خمسة وعشرين إلى ثلاثين.

وتكون في الكلك أكوام من الخشب يستطيع الكلاك أن يمر من تحتها ليراقب القرب، وفوق ذلك كميات أخرى مرتفعة من الخشب أيضاً تصف فوقها البضائع ويجلس المسافرون فوقها.

وتترك في الوسط مسافة لمجذافين يساعدان على قيادة الكلك وهما مصنوعان من قصب مربوطة الواحدة بالأخرى، طول الواحدة ثلاثة أقدام.

وعندما يكون بين المسافرين شخصية مرموقة فإنهم يتركون مساحة يوضع فيها فراش وتنصب عليها خيمة تقيه من الشمس.

وعندما يحل المساء يربط الكلك إلى ضفة النهر بحبل قوي، إذ لا يستطيعون السفر ليلاً بل في النهار فقط، لأنه قد تصادفهم صخرة، والصخور كثيرة في النهر، أو أساس جسر قديم فينقلب الكلك ويغرق المسافرون، ولا تمر سنة دون أن يحدث مثل ذلك، لكن المسافرين يخلصون سباحة؛ لأن مجرى النهر ليس عريضاً.

حصن كيفا:

كان الموسم قد تقدم وأصبح المناخ فوق الماء بارداً، وكان السير بطيئاً، ونزل الملاحون أكثر من مرة إلى الماء ليدفعوا الكلك.

وبعد ستة أيام وصلنا إلى قرية اسمها حصن كيفا[1]، وقيل لنا إن هناك

(١) حصن كيفا بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر، أنظر: الحموي: معجم البلدان: ٢: ٢٧٧.

قلعة قوية جداً، ورأينا هناك آثار جسر كبير.

وقد أعطتني هذه البقايا انطباعاً بحسن صنعها، إذ رأيت في الأقواس بعض الأحجار فيها صور أسد أو حيوانات أخرى.

يسكن في هذا المكان (بيك) كردي هو بمثابة الدوق عندنا، ويستوفي من جميع المسافرين ضريبة وكذلك من البضائع، وهو إنسان وقح جداً لا يعترف بأوامر الباب العالي بل بتعليمات باشا بغداد لا أكثر.

سرنا بممرات جبلية ضيقة تكثر فيها الكهوف التي يسكنها يزيديون وهم عبدة الشيطان[1] الذين ضايقونا كثيراً بطلقات نارية كانت تصدر عنهم، وقد استخدموا عوض الرصاص طلقات مصنوعة محلياً من الفخار والشعر ومعجونة ببول الفرس فتكون والحال هذه صلبة ومسمومة وتحدث جرحاً من الصعب معالجته إلا ببتر العضو المصاب.

وتوجد في تلك الأماكن الضيقة دوامة في النهر خطرة جداً على المسافرين إذا لم ينتبه إليها قائد المركب فإنها تبتلعه بكل تأكيد، ففي سنة واحدة لقي ثمانية عشر كلكاً الهلاك هنا فلم يخلص الركاب الذين كانوا على متنه ولا البضائع.

وعند مرور الأكلاك في هذا المكان الخطر يكثر الصراخ الصادر عن الركاب، ويعتقدون بخرافة مفادها أنه من الضروري رمي أي شيء في ذلك المكان، وكان أول ما رموا هناك قليلاً من الملح ثم الصابون ثم الخبز، ويدّعون أن هذه الدوامة عميقة جداً ولا قرار لها.

---

(١) اليزيديون جماعة منتشرة في سنجار وقراها وفي الشيخان حيث مركزها الديني، الصائغ: تاريخ الموصل ١ : ٢٩٦؛ الدملوجي: اليزيدية، الموصل، ١٩٤٩.

وبعد ذلك المكان كان تيار النهر قوياً وخطراً أيضاً لكثرة الصخور المخفية تحت مستوى الماء، ولم يكن من السهل على الملاحين بتلك المراكب البسيطة وبمجاذيفهم البدائية التخلص من تلك الأماكن الخطرة، ولذلك فما أن يعبروا بسلام من هذين الموقعين الخطرين حتى يمروا على الركاب ليجمعوا منهم ما يجودوا به عليهم من دراهم لقاء مهارتهم وحسن قيادتهم.

كان يقف على ضفاف النهر عدد كبير من الرجال والنساء يطلبون من التجار قليلاً من الصابون أو التتن أو السبلان[1]، فكان الركاب يرمون لهم شيئاً من ذلك على الجميع ليتخلصوا من طلقات النار.

وكان بعض أولئك الناس من الجنسين يرمون بأنفسهم في النهر مستعينين بزق منفوخ بالهواء، وتقدم نحونا في النهر ثلاثة رجال خيالة؛ لأن النهر كان هناك عريضاً وكانوا مسلحين بالرماح.

وعند مرور أحد الأكلاك إستطاعوا سرقة طنفسة وهربوا بالغنيمة واستطاعوا أن يتخلصوا من زخات الرصاص التي أمطرهم بها ركاب ذلك الكلك.

يمر هذا النهر بمكان يتكون فيه مستنقع واسع وعند وصولنا إلى هناك رأينا بجعاً كبير الحجم، أبيض الجسم كالثلج، منقاره أصفر يبلغ طوله نحو شبرين وعرضه أربعة أصابع، ويعد هذا الطائر عشاً في الصحراء بعيداً عن الماء، وله في عنقه حوصلة كبيرة قادرة أن تسع ثمانية أقداح من الماء، ولذا

(١) السبيل آله للتدخين تصنع من الطين وتفخر وتزجج، أو من الخشب المتين.

يطلق الأتراك والعرب على هذا الطائر اسم سقاقوشي أي حامل الماء[1]».

قد رأيت طائراً آخر مثله في طريقي إلى البصرة وكان سميناً وسوف أنشر رسم صورته كشيء غريب ونادر في الجزء الثالث من رحلاتي.

الجزيرة:

أخيراً وصلنا إلى مدينة الجزيرة[2] Gessire التي يحكمها باشا من حاملي الطوغين[3]، وهو كردي الأصل، ويقسم نهر دجلة هذه المدينة على قسمين: قسم في أرض بين النهرين والقسم الآخر في كلدية.

ولا يزال يوجد الى اليوم جسر شيد قديماً يقع قسم منه في هذه الجهة والقسم الآخر في الجهة المقابلة ويظهر ببقاياه عن عظمته السابقة.

يسكن المدينة ثلاثة آلاف نسمة بين مسلمين وأكراد ومسيحيين ونساطرة، وفيها عدد غير قليل من اليزيدية، وبطريرك النساطرة.

بارحنا تلك المدينة والمطر ينهمر علينا والليل قد بدأ يخيم على المسكونة، ثم نزلنا إلى اليابسة كعادتنا، ولكي أتوقى الماء رأيت أن أرقد.

---

(١) البجع: طائر عريض المنقار طويل له حوصلة عريضة تحت منقاره، له أسماء عدة؛ أنظر مجلة لغة العرب ٨ (١٩٣٠) ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) وتعرف باسم جزيرة ابن عمر وهي بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام... تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال، الحموي: معجم البلدان: ٢:٧٩.

(٣) الطوغ حزمة من شعر ذيل الحصان كانت تعلق عالياً كالراية رمزاً لتكريم حاملها من قبل السلطان، ويكون على ثلاثة أصناف والثالث أعلاهم. انظر: سركيس: مباحث عراقية١: ٤٠ ـ ٤١.

قليلاً وأغطي نفسي بالسجادة التي أحملها، وبعد قليل نعست فنمت، وإذا بعربي جاء خلسة ورفع السجادة عني ومضى دون أن انتبه، وإذا بالمطر الذي كان ينزل علينا أخذ يتسرب إلى جسمي فشعرت بالبرد فنهضت ورأيت نفسي من دون غطاء، فذهبت أبحث عن السجادة فرأيت بعض الأعراب مجتمعين حول النار، ورأيت تحت أحدهم الغرض المسروق مني فانحنيت لأتأكد منه ومددت يدي إلى حافته وإذا بعصا غليظة تنهال على وجهي فظننت للوهلة الأولى أني فقدت بصري فانسحبت أجر أذيال الخيبة وأسكب الدموع، بينما كان الدم ينزف من انفي أما في الصباح فقد استيقظت وكأن شيئاً لم يحدث فقد زال ألمي.

ولما انطلقنا رأينا بعد مسافة كلكاً مقلوباً؛ لأنه اصطدم بصخرة كبيرة، لكن ركابه استطاعوا النجاة وتمكنوا من إنقاذ بعض بالات التبغ.

وقد أخذتني الشفقة على أحد الأولاد الصغار الذي احتضن بالة يطلب الخلاص إذ لم يستطع السباحة إلى حافة الشطر كما فعل الآخرون، وقد سحبوه في آخر الأمر من النهر.

في ذلك اليوم توقفنا لنجفف أغراضنا التي خلصناها من الماء، وهنا حاولوا تكبير الكلك جاعلين الاثنين واحداً؛ وذلك لكي يتفادوا الضريبة الثقيلة التي يجب أن تدفع في الموصل؛ لأنه عند عبورهم الجسر في تلك المدينة عليهم أن يدفعوا مبلغاً معيناً، والسبب الثاني لدمج الكلكين لأن النهر كان قد توسع كثيراً في تلك المنطقة.

التوجه إلى بغداد:

أكملنا السفر وتوقفنا في الموصل ثلاثة أيام لا أكثر، ومن هناك رحلنا ووجهتنا بغداد، وقبل وصولنا إلى أسوار مدينة بغداد بيوم واحد مررنا بموقع خطير إذ يقولون أن نمرود كان قد شيد هناك سداً بين ضفتي النهر، فأصبح مجرى الماء هناك وكأنه شلال إرتفاعه ١٣ شبراً، ولأن الأكلاك مستوية الأسفل فعند وصولها إلى هذا المكان ترتفع بالضرورة ثم تهبط تدريجياً ومن ثم تسقط أمام السد المذكور[١].

وفي كثير من المرات تنكسر في وسطها أو تسقط بشدة بحيث يستحيل رفعها، ولذلك فقبل الوصول إلى ذلك المكان ينزل الركاب من الكلك، وبعد أن يمر الخطر يعودون إليه ثم يكملون السفر فيصلون بعد يوم إلى بغداد القديمة، وإذا بأسوارها قريبة من النهر، ويستغرق السفر من أمامها ثلاث ساعات، ولها دعامات خارجية تبعد الواحدة عن الأخرى مئة خطوة وهي مشيدة بآجر مفخور بالنار، ويبلغ ارتفاعها في بعض الأماكن نحو ستين كوبيتا[٢].

وعرض السور الأول من جهة الأقسام المتهدمة نحو قصبتين[٣] وبعض الشيء.

(١) يذكر السائح تافرنييه هذا السد فيكتب.. بلغنا سداً ضخماً عرضه ٢٠ قدماً، ويشكل شلالاً في النهر إنحداره عشرون قامة، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه، بغداد ١٩٤٤، ص ٧٠.

(٢) مقياس للطول يساوي ٤٥ سم.

(٣) مقياس يختلف من بلد إلى آخر من متر + ٧١.

وفي أثناء المرور من هناك رأيت برجين قديمي البناء، وقسماً من سور متهدم ومغائر فسيحة مدعومة بأقواس عريضة، ولا يدخلها أحد إذ يقولون عنها أنها مأوى الوحوش أو وكر الأفاعي، وسوف أصف ذلك كله باسهاب في كتاب رحلتي الثالثة.

أكملنا سفرنا مع موجات دجلة فوصلنا إلى تكريت، وهي مدينة قائمة على ضفاف النهر من جهة أرض بين النهرين.

وأخيراً بعد واحد وأربعين يوماً من سفر خطر وغير مريح على الكلك وصلنا إلى بابل الجديدة أي بغداد.

وقد وجدت في دائرة الكمرك الأب عمانوئيل[1] الذي كنت قد أرسلت للعمل معه، وكان يرافقه المقيم الانكليزي الذي يدعى المستر داريل Darel اللذين أخذاني حالاً إلى البيت، وهناك عند الباب وجدت الأب رايموند[2] وهو من أبناء رهبنتنا وكان قد جاء من همدان بعد أن ذهب إليها ليبحث عن إمكان ترميم البيت والكنيسة الاسقفية هناك التي كانت متروكة منذ سنوات بعهدة خادم؛ وذلك بسبب الحروب المنتشرة في بلاد فارس، ولم يشأ أن يعود إلى هناك إنْ لم يتأكد بأن الحال أصبحت أفضل مما كانت عليه سابقاً، ويريد أن يعرف ذلك من النائب الرسولي نفسه.

---

(١) الاب عمانوئيل بابيه (١٧٠٢-١٧٧٣) قدم إلى العراق سنة ١٧٢٨ وأصبح اسقفاً على بغداد سنة ١٧٤٢ وتوفى بالطاعون، له تقرير باللاتينية ترجمناه إلى العربية ونشرناه في مجلة بين النهرين ١٩٨٣ ص ٢٢٥-٢٣٨.

(٢) الاب شارل رايموند خدم في بغداد ١٧٣٤-١٧٤٥.

السفر إلى همدان:

لهذه الأسباب صار من نصيبي أن أذهب إلى تلك المنطقة الصعبة من دون أن أعرف بالضبط أين سأذهب، وأي جبال سأقطع في ذلك الشتاء القارس.

وقد رافقني في سفري هذا شاب حلبي اسمه منصور، وكان بالنسبة لي، رفيقاً ومترجماً ومعلماً!

وفي السابع من كانون الثاني سنة ١٧٣٥ رحلنا إلى سوسة على حمارين ومعنا تاجر أرمني الذي عوض أن يكون عوناً لي جعلني أُنفق عليه إذ لم يكن معه المال اللازم لإتمام السفر معنا.

كان المكان الأول الذي مررنا به بعد مغادرتنا بغداد قرية فقيرة تقع على نهر ديالى ولذا تحمل اسمه، وهناك أمضينا الليلة الأولى بحال مزعجة جداً.

أما الليلة الثانية فكانت أتعس من سابقتها، إذ قضيناها في قرية أخرى أفقر من الأولى، وقبل أن نصل إلى القرية الثالثة كان علينا أن نقطع مسافة نصف ميل أرضاً غمرتها المياه فحولتها إلى منطقة موحلة، ولم تعد الحمير تستطيع المسير بأحمالها مما اضطر الرجال إلى إنزال الأحمال وحملها على ظهورهم، وبدورنا تبعناهم ونحن حفاة، وكانت الأرض مليئة بالنباتات الشوكية التي كانت تنغرز في أقدامنا الملطخة بالوحل وقد جمدها البرد.

وقبل أن أعود فألبس الجوارب ركضت مسافة ليدفأ جسمي، ثم أكملنا السفر.

ومن جديد بدأ المطر ينهمر علينا ويزعجنا قبل أن نصل منلي[1]، وهو مكان مأهول بالسكان ويكثر فيه النخيل.

وعلى الرغم من أن هذا المكان يبعد ثمان ساعات من الموقع الذي انطلقنا منه في الصباح الباكر، لكننا لم نصل إليه إلا في الرابعة ليلاً، إذ كان علينا أن نسند دائماً الأغراض المحملة على دوابنا لئلا تقسط.

أو كنا نعثر مراراً كثيرة، ووصلنا أخيراً إلى مخيم تَعِبينَ مُنْهَكينَ وقد تبللت ثيابنا بحيث لم يعد أي واحد منا يقدر أن يسند نفسه، ولم تفدنا كثيراً النار المتأججة لتجفيف ثيابنا طوال الليل، واستمر المطر في اليوم التالي بلا انقطاع ولم نستطع الرحيل إلا في اليوم التالي عندما خف هطول المطر.

[. . . . يكمل السائح وصفه لسفره إلى همدان في موسم البرد وكيف أن مرافقه الحلبي تجمد من البرد فشجعه لإكمال الطريق وكيف أنه نزل الخان. . . وسمع بوصوله الخادم الذي كان يحرس بيت الكرمليين في همدان فجاء لاستقباله، وأكملا الطريق وكانت الثلوج تغطي الأرض بارتفاع أربعة أشبار. . . . ووصل إلى المدينة فرأى في إحدى غرف البيت حفرة في وسطها يشعلون فيها الخشب والفحم ويضعون فوقها منضدة صغيرة مرتفعة عن الأرض شبرين وتغطى بغطاء ثخين فينامون تحتها].

كانت همدان كثيرة السكان قبل أن يحاصرها أحمد باشا[2]. . . وكان إلى

---

(١) بلدة قديمة هي اليوم مركز قضاء باسمها في محافظة ديالى، عرفت قديماً باسم بندنيجين وحرف اسمها إلى منڈليجين وأخيراً منلي، أنظر الحموي: معجم البلدان ١: ٤٩٩، ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ص ٨٨.

(٢) أحمد باشا بن حسن باشا الوحيد عين والياً على شهر زور ١٧١٥ ثم نقل إلى أورفا

الغرب منها أقواس وأسوار قوية لكنها كانت تفتقر إلى المدفعية؛ ولذلك فعندما حاصرها الأتراك بمئة وستين ألف رجل بقيادة ذلك الرجل المشهور أحمد باشا بن حسن باشا[1] والي بغداد الذي مات موتاً طبيعياً في كرمنشاه في تلك الحملة[2].

فخلفه في مكانه ابنه سنة ١٧٢٥ في شهر تشرين الأول وكان من قبل باشا البصرة، وقد جاء وحاصر همدان وترك ثلاثين ألف قتيل تركي، لقد استمر الفرس والأتراك يتقاتلون مدة يومين، وسالت الدماء كالأنهار، وأخيراً استولى الأتراك على المدينة ففتحت الأبواب ودخل الباشا وسمح باستباحة المدينة وترك المجال لمن يريد الفرار.... وكان الأب جان — يوسف (من الآباء الكرمليين) مختبئاً في الطابق الأسفل في أثناء استباحة المدينة ثم خرج فألقى أحد الأتراك القبض عليه فأسره، لكن أحد المسيحيين المحليين افتداه لقاء حصان، وساعده القائد العام فأصدر أمراً بأن تعاد إليه كل الأغراض المسلوبة منه وأن يسترجع ديره وكنيسته.

وبقيت همدان ثمانية أعوام تحت حكم الأتراك، ففي شهر تشرين الأول، سنة ١٧٢٥ شن أحمد باشا والي بغداد الشجاع هجوماً على هذه المدينة؛

فالموصل ثم البصرة ثم بغداد (١١٣٦-١١٤٧ هـ = ١٧٢٣-١٧٣٤م) ثم تسلمها ثانية؛ (١٧٣٦-١٧٤٧م) وانقطع عنها أشهراً وعاد في السنة الثانية، لونكريك: أربعة قرون، ص ١٥٩.

(١) حسن باشا (١١١٦-١١٣٦ هـ = ١٧٠٤-١٧٢٣م) لونكريك: المرجع نفسه، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) نقل إلى بغداد ودفن في جامع أبي حنيفة، وأسبغ عليه بسبب موته هذا بلقب (فاتح همدان) الكركوكلي: دوحة الوزراء: ص ١٨.

وكنت شاهد عيان لما حدث وقد وصفت بأسهاب تلك الحوادث.

وفي العام ١٧٢٦ نحو نهاية شهر آيار، قام القائد الأكبر أحمد باشا الذي يطلق عليه الانكشاريون[١] اسم قره أحمد فانطلق على رأس جيش مكون من مئة ألف محارب بأمر مباشر من الباب العالي العثماني ليتقدم من همدان ويستولي على أصفهان[٢]، لكن جيشه سحق على بعد أربعة أيام من العاصمة من بضعة آلاف من الجنود الأغوان[٣]Aguani وكانوا بقيادة أشرف خان[٤].

في تلك السنة استطاع الأمير طهماسب مع عدد قليل من اتباعه أن يحافظ على أقليم مازندران.

وقد أرسل أشرف سفيراً إلى السلطان العثماني سيد اسطنبول للتفاوض من أجل السلام مع الباب العالي، ولكي يعترف به الباب العالي أنه صفوي حقيقي في بلاد فارس.

في سنة ١٧٢٧ كان الجيش التركي بقيادة علي باشا[٥] الذي قام قبل

---

(١) لفظة تركية تعني الجند الجديد، كانوا من الصبيان المسيحيين الذين يؤخذون كجزية أو في الحروب والغزوات ويتربون على الولاء للسلطان ويدربون تدريباً عسكرياً دقيقاً، انتهى أمرهم سنة ١٨٢٦ بأمر السلطان محمود الثاني.

(٢) حديقة الزوراء: ص٢٨٢.

(٣) الأغوان يريد بهم الأفغان.

(٤) حديقة الزوراء: ص ٢٨٢ في الهامش.

(٥) علي باشا حكيم أوغلي (١٦٨٨-١٧٥٦م) أنظر: حديقة الزوراء: ص ٣٣٩.

سنتين بحملة على مدينة تبريز وقد كسره الأفغان، أما الذين كانوا في أقليم كيلان فقد كسرتهم ثلاث مرات قوات الموسقوف[1] على الرغم من أن الحملات لم تكن عامة وواسعة بل هجومات بعدد قليل من المحاربين.

روى لي نصرت خام (خان) Nazarat Kam صديقي الحميم في بغداد أكثر من مرة كيف أنه كان قائد فرقة من الفرسان من بني شعبه قوامها ثلاثة آلاف رجلاً، شمرت سيقانها للريح هاربة أمام ثمانمائة مقاتل من الموسقوف كانوا مختبئين بين الأدغال، وحكى لي أيضاً عن إعجابه بطريقة قتالهم بسيل من النار مستمر كانوا يمطرون به جنوده.

وفي مطلع تشرين الأول حصل الأفغان على نصر جديد ضد الجيش العثماني الذي كان تحت قيادة عثمان باشا في منطقة شماخي .Sciamachie

إن هذا النصر الجديد إضافة إلى نصر سابق ذهب ضحيته عدد كبير من الانكشاريين في البحر الأسود مع فقدان كمية كبيرة من معدات الحرب وعندما وصلت أخبارها إلى اسطنبول كانت سبباً لموت الصدر الأعظم وأجبرت السلطان نفسه ليتنحى عن العرش، لكنه قبل تنحيته أرسل مبعوثاً إلى الملك أشرف بدرجة وزير مفوض لعقد إتفاقية سلام التي أبرمت سنة ١٧٢٨.

وإذ كان أشرف راغباً بالسلام مع الأتراك فإنه رضي أن يتنازل لهم عن كل المدن والقرى التي احتلوها إلى ذلك الوقت في مملكة الفرس.

---

(١) يريد بهم الجنود الروس والنسبة إلى موسكو.

إنتصار أحمد باشا في همدان:

عاد الملك الفارسي إلى أصفهان، وخلال أشهر قليلة إستطاع وهو في المدينة الملكية أن يقوي جيشه بعدد كبير من المقاتلين يربو على ستة آلاف من الجنود المتطوعين وكلهم من الافشار ولهم خيولهم الخاصة بهم.

في بدء شهر آيار سنة ١٧٣١ إنطلق الملك الفارسي على رأس جيشه نحو يرفان Erivan، وعندما وصل إلى قاشين Cashin غيَّرَ فكره فوجه جيشه نحو تفليس وعبر سنا Sina ومنها ذهب إلى همدان ليطرد منها أحمد باشا والي بغداد الشجاع الذي كان منذ أربع سنوات مسيطراً على هذه المدينة باسم الباب العالي.

فلما بلغ خبر تقدمه إلى القائد العام خرج مع جنوده للقائه في سهل واسع الأرجاء يبعد ثمان ساعات عن أسوار المدينة، وهناك التقى الجيشان وجرت معركة سالت فيها الدماء بغزارة، وبعد ثمان ساعات من القتال انتصرت القوات التي كانت بقيادة أحمد، فاضطر الملك طهماسب[1] Tommaso أن يطلب السلام متنازلاً للمنتصر عن مدينة همدان مع المدن والقرى التي كان الأتراك قد استولوا عليها وانتزعوها من فارس، وأعلنت هدنة عامة، وأرسل الطرفان سفراء إلى اسطنبول لكي يتم التوقيع على شروط الهدنة برضى السلطان، فأيد الباب العالي ذلك بكل سرور[2].

---

(١) طهماسب ميرزا أخر ملوك الدولة الصفوية، تولى العرش سنة ١١٤٢هـ=١٧٢٧م وعزله نادرشاه ثم قتله كما سيأتي ذكره في الصفحات التالية.

(٢) حديقة الزوراء: ص ٣١٨.

ظهور طهمازخان:

وعندما بلغت هذه الأخبار إلى طهمازخان[1] شعر بأسف كبير، فترك فكرة الحملة التي خطط لها ضد قندهار وعاد بجنوده إلى أصفهان حيث اكتشف من الأخبار المنتشرة بين الناس بأن الملك قد ترك العنان لنفسه في احتساء الخمر وأمست تصرفاته لا تليق بمكانته السامية إذ كان يدور ليلاً بين البيوت في مدينة جلفا ويدخل في بيوت النصارى الأرمن والمساكين، حيث يشرب الخمر بإفراط.

فانتظر طهماز ساعة يكون فيها الملك صاحياً، فخاطبه قائلاً: سيدي تعرف جلالتكم جيداً كم سعيت مع أصحابي لأعيدكم إلى العرش، عرش أسلافكم؟ وتعرف جيداً كم اجتهدت لأضمن لكم التاج فاعقده على هامتكم، ولذلك قاومت أعداء فارس لأدمرهم في عقر دارهم، ولنجحت في مسعاي لو لم تقدم جلالتكم على التراجع أمام الأتراك فتعقد السلام غير المشرف مع أحمد باشا والي بغداد.

فهذه الأمور وغيرها كانتفاضات شعوبكم تدعوني لأترك بسلام الأفغان والخزر حيث استطاعت جيوشي أن تقطف في كل مكان ثمار الظفر.

واستطرد قائلاً:

"وأرى من واجبي أن أحافظ على كرامة مليكي الشاه الذي برضاه وبأذنه سأستعيد ليس همدان فحسب بل بغداد نفسها وسائر المدن التي

(١) المرجع نفسه: ص ٣٣٦ لونكريك: أربعة قرون ص ١٦٧.

استولى عليها الأتراك فاغتصبوها من سيطرة التاج التي كان قد حصل عليها عباس الأول[1] سلف جلالتكم".

فأجاب الشاه طهماسب على هذا الكلام قائلاً: " بأن الظروف لا تساعد للقيام بمثل هذه الحملة؛ لأن ذلك سيلحق الاهانة بالسفراء الذين كانوا أنذاك في اسطنبول، لأنه إن فعل مثل ذلك فإنه سيلطخ اسمه المجيد لأنه يخرق إتفاقيات الأمم".

لكن طهمازخان الجريء لم يستسلم إلى هذا الرأي بل أجاب بروح يعبر عن جسارته قائلاً: "سيدي، إن الجيش وكبار المملكة غير راضين عن قراراتك التي أخذتها بتسرع، على عكس القرارات المدروسة التي كنا قد اتخذناها في مجلس الشورى الحربي الذي عقدناه قبل ذهابي إلى قندهار.

وأضاف قائلاً: إن الشعب مغضب لرؤيته الملك يدور من بيت إلى آخر من دون حماية، ويخرج وهو شبه سكران".

إنه - أي الملك - يعرف جيداً مدى إخلاصه الذي تعهد له بخدمته، وليتأكد جلالته بأن هذا الإخلاص مستمر حتى الموت.

ولكن من أجل رفع الأسى والتذمر عن نفوس الرعية فالأفضل أن يتنازل عن العرش، وينصب عليه مكانه الطفل الملكي الذي له من العمر ثمانية أشهر ويعطي له اسم شاه عباس.

ففي هذه الحال لن يستطع سلطان اسطنبول التذمر من جلالتكم، وسوف لن يلحق الأذى بالسفراء الموجودين عنده، وعندما يعرف بأني قائم

---

(١) عباس الأول الصفوي (١٦٢٢-١٦٢٨م) وهو الذي احتل بغداد سنة ١٦٢٢.

على رأس الجيش ومزمع أن اطرد أتباعه من بلاد فارس وبأني سأسير نحو بغداد لحصارها سيعلم بأن تحركاتي لم تتم بأمركم بل بأمر مجلس الوصايا أي مجلس عظماء المملكة: وإن شاء فليقل إن السبب هو طهمازخان الذي يعتز كثيراً بالشرف والمجد وبسعادة مليكه الذي من أجله هو على أتم الاستعداد ليضحي بكل شيء حتى بنفسه".

هذا الكلام مع براهين أخرى مختلفة نطق بها طهمازخان كان لها وقع عميق في نفوس الشاه ووزرائه الأقربين بحيث لم يتجاسر أحد منهم فيرد عليه بكلمة احتجاج واحدة.

فوضع الملك تحت حراسة مشددة أُنيطت برجال من أخلص أتباع طهمازخان، وأعلن ابنه ملكاً باسم عباس، وعندئذ سار طهمازخان على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل لحصار همدان، ووصل إلى هناك في وقت غير متوقع فخيم في جبل الوند Alvent مقابل المدينة ليبدأ عملياته.

حصار بغداد:

أما أحمد باشا وهو القائد المحنك فلم يرد أن يغامر بجماعته دفاعاً عن الموقع المذكور؛ لأنه رأى نفسه غير قادر على مقاومة العدو، ولم يكن يتوقع وصول العون إليه ليحافظ على المدينة تحت سيطرته، ولذلك إنسحب منها سراً مع جماعته وعاد إلى بغداد حيث جمع المؤن الضرورية ليتخذ فيها موقفاً دفاعياً حصيناً.

ولم يتأخر طهماز الجريء عن السعي وراءه حتى أسوار بغداد إذ حاصرها، لكن هذا القائد أخطأ في هذه المرة إذ لم يكن بعد خبيراً في الحصار، ولم يكن يملك آلات ضرب الأسوار لفتح ثغرة فيها، وكان معه،

جيش جرار بطيء الحركة بحيث أتاح لأحمد أن يستعد لمقاومة الحصار.

وقد صمم ـ طهماز ـ على بناء مدينة جديدة تبعد مسيرة ساعة عن بغداد قرب قرية اسمها الإمام الأعظم Himam azzan[!]، إذ كان هناك جامع فخم على اسم ولي من الأولياء اسمه أعظم (؟)، ولذا أعطي اسمه للقرية، وفكر أنه إذا احتل الأرض التي من جهة كلدية بجيشه العرمرم فإنه يحاصر بغداد حصاراً كاملاً من هذه الجهة، فينشر فيها الجوع لاستحالة وصول التموينات الضرورية إليها فتستسلم بالتأكيد، ولا سيما أن جيشه كان قد تجهز جيداً بكل الضروريات.

وإذ مرت ثمانية أشهر من الحصار، وما كان من المستطاع أن يدخل أي نوع من الطعام إلى المدينة لذلك انتشر الجوع فيها وأثر في البغداديين ولم يشعروا بأي بصيص أمل أمامهم، فصارت بالنسبة إليهم أطعمة لذيذة جداً تلك الحيوانات النجسة التي هي في نظر الشريعة محرم عليهم حتى لمسها، لقد أصبحوا بحال يرثى لها[١]

وقد استولى على قسمها الواقع على نهر دجلة من جهة ما بين النهرين، وإذا بخبر مفاده أن ابن عمه عباجي خان kan ـ Abbachi الذي كان قد أقامه حاكماً على شيراز إذ كان في همدان قد جهز جيشاً كبيراً،غايته السير إلى أصفهان ليحرر الملك المحتجز.

وإزاء هذا الخبر قَبِلَ بإبرام السلام مع أحمد باشا بشرط أن يتسلم منه قطعتين من المدفعية الثقيلة من النوعية التي ألحقت بجيشه أذى كبيرا، وإذ قبل ـ أحمد ـ الشرط رفع الحصار وأسرع في العودة لقمع حركة عباجي

---

(١) حديقة الزوراء: ص ٣٥٢.

خان لكنه حافظ على حياته، وفي الوقت نفسه شدد الحراسة على الملك المحتجز، وسعى للتخلص من الملك الصغير الذي عرف باسم شاه عباس الثالث إذ دس له السم.

نسيت أن أذكر بأن قطعتي المدفعية اللتين حصل عليهما من سور بغداد اضطر لدفنهما في الصحراء، فضاع أثرهما تحت الرمال، إذ لم يستطع سحبهما لكبر حجمهما؛ ولم يعثروا عليهما لاحقاً، لأن الرياح حركت الرمال من مكان إلى آخر.

لم يكتفِ بهذا العمل الدنيء إذ زهق روح طفل بريء. . . فأعلن نفسه وصياً على مملكة فارس متخذاً اسم طهماز قلي خان الذي يعني عبد طهماز وبهذا الاسم سنشير إليه في سردنا التاريخي هذا إلى أن يبادر إلى تبديل اسمه من جديد، وبهذا الاسم المزيف (عبد الملك طهماز) عمل على ذر الرماد في عيون الناس المساكين.

حصار جديد:

ثم قرر ـ طهماز قولي خان ـ أن يزحف من جديد بجيشه الجرار من أجل حصار بغداد ـ وبهذا الوقت كان السلطان ـ العثماني ـ قد أرسل جيشاً عظيماً قوامه مائتي ألف مقاتل بقيادة طوبال باشا عثمان Topal ـ Bassa ـ Osman[1] ـ لكن هذا مع كونه أفضل قائد عند الاتراك كما سأروي في تاريخه الخاص إذ يستحق كل المدح، إذ سار إلى ساحة القتال للمساعدة،

(١) عثمان باشا الأعرج من أشهر القادة العثمانيين، أدار بعض الولايات ثم نال رتبة الوزارة حتى صعد إلى منصب الصدارة العظمى، وقاد الجيش العثماني لإنقاذ بغداد من حصار نادرشاه، وسيروي رحالتنا بعض تفاصيل حياته ثم نهايته.

لكن سيره كان بطيئاً بحيث أن المدينة ـ أي بغداد ـ كانت تحت الحصار للمرة الثانية عندما وصل بجيشه بالكاد إلى الموصل، واضطر أن ينتظر هناك أياماً عديدة حتى وصل خبر يؤكد بأن المدينة (بغداد) هي فعلاً تحت الحصار من كل جهاتها.

واستطاع بعض الأعراب أن يعبروا النهر سباحة ليوصلوا رسائل من بغداد إلى الموصل، وتشجع الذين كانوا تحت الحصار على أمل وصول العون المرتقب، لكن ساعة الوصول بقيت غامضة.

وعند كركوك Karchut بالقرب من المكان المسمى ارجيلا Argella حيث استطاع المقدوني العظيم (اسكندر) أن ينتصر في معركته الحاسمة ضد داريوس ملك الفرس[1]، ثم تقدم هذا الجيش وخيم على بعد ثمانية أيام من بغداد.

في هذه الأثناء نفذ صبر أحمد باشا إذ كان يرى حصار المدينة الخانق لمرور الأيام، وعدم وصول أي خبر من القائد العام التركي، فجمع عنده الجوخدارية[2] وسألهم إن كان بينهم من يتحلى بالشجاعة فيستطيع أن يخترق الخطوط الفارسية ويوصل رسالة له موجهة إلى القائد العام في كركوك.

فأجابه على الفور أحد خدامه واسمه دلي خليل Kallil_Deli بأنه مستعد للقيام بهذه المهمة على أن يزود بحصان أصيل كان يملكه رجل عربي اسمه

(١) درايوس أو دار ملك فارسي (٣٣٦-٣٣٠) ق.م هزمه الاسكندر المقدوني.

(٢) الجوخدارية هم الموظفون الذين يقومون بخدمات تستوجب الاتصال من خارج السراي فهو الساعي وهو موظف التشريفات.

صدوح Saduh، فأمر الباشا بأن تجلب تلك الدابة في الحال وسلم الرسالة إلى الخادم الذي كان يحمل معه قفصاً فيه أربع حمامات[١]، من تلك التي وصفها الشاعر تاسو Tasso[٢] في كتابه عن "أورشليم" حيث أنشد:

وكان هذا السر إن الكتابة المسجلة بحروف غريبة وضعت تحت حماية الطائر الذي كان يستعمل في الشرق في ذلك الزمن".

وكانت طريقة الرجل في كيفية إرسال الحمائم هي كالتالي: فالأولى يطيرها ما أن يدخل صفوف الأعداء، والثانية بعد أن يخرج من تلك الصفوف، أما الثالثة فعند وصول خبر من طوبال عثمان، ويجب أن تحمل هذه وريقة تحت جناحها تخبرهم عن موعد الهجوم على الجيش الفارسي، وأما الحمامة الرابعة فتنقل الخبر الأكيد إلى الوالي.

هذه الحمائم التي من حيث لونها وحجمها لا تختلف عن الحمامات المنتشرة في إيطاليا، والاختلاف الوحيد بأن لها في أعلى المنقار شحمة تمتد إلى العينين، وهي ليست جميلة المنظر ويطلقون عليها هناك اسم حمامات فلك نوح[٣].

هذه الحمامات تعود بأسرع وقت إلى فراخها، وهي مخلصة لأصحابها، ولا تضل طريقها إلا إذا هجم عليها طائر كبير أو كانت

---

(١) أنظر الجاحظ: الحيوان ١:٤٣٥ تحقيق يحيى الشامي، القاهرة، ١٩٩٧، الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١:٣٨٢ القاهرة ١٣٧٤هـ، ويسميه النويري (الحمام العلوي) نهاية الأرب ١٠:٣٧٠.

(٢) شاعر إيطالي مشهور (١٥٤٤-١٥٩٥) له ملحمة عن أورشليم المقدسة.

(٣) سفر التكوين ٨:٨-١٢.

عطشى ولا سيما في فصل الصيف، فعندئذ ترمي بنفسها في النهر فتفقد بسقوطها الرسالة من تحت جناحها، ولذلك يعمدون إلى كتابة مثل هذه الرسائل على رق.

إنطلق دلي خليل وما أن اقترب من معسكر الفرس حتى أطلق الحمامة الأولى ولكز حصانه فتوغل في صفوف جيش العدو سريعاً كالعصفور، فتتبعوه ورموه بطلقات نارية كثيرة فأطلق الحمامة الثانية التي تخبر باشا بغداد بأن رسالته طارت إلى القائد طوبال عثمان باشا، ثم أطلق الثالثة فعادت بالخبر فأسرع يخبر أحمد باشا بالحمامة الرابعة بأن يوم الأحد القادم صباحاً سيبدأ هجومه على الجيش الفارسي، وعليه أن يهجم في الوقت المحدد بالمقاتلين الانكشاريين والفرسان.

وأن يخرج الجنود المشاة أيضاً من المدينة بحيث يصبح العدو في الوسط، ففرح الوالي كثيراً بهذا الخبر وبدأ يعد جيشه للخروج.

لم يكن طهمازخان بالطبع نائماً، فقد كان يعلم بأن الجيش العثماني قد وصل أطراف كركوك، لكنه أخذ يفكر بما يحدث له لو تحرك باتجاه الجيش العثماني في سهل كلدية على أن يسير بمحاذاة نهر دجلة، فإذا به وجها لوجه مع الجيش التركي فارتعد في أول الأمر الجيش العثماني إذ لم يكونوا قد نصبوا الخيام فتفرقت الصفوف الأولى، وإذ رأى القائد العام طوبال عثمان هذا المنظر أمر بأن يبقى كل جندي في مكانه عند ضفة النهر فانتشر جيشه على طول النهر بينما ابتعد جيش طهمازقولي خان عن النهر لينتشر في السهل الواسع ولم يفكر بأنه كان في فصل حار وهو شهر حزيران وأن السهل الذي انتشر فيه هو قفر، فتأذى جنوده بسبب العطش، وبعد ثلاث ساعات ترك ميدان الحرب للأتراك وهكذا انتصر هؤلاء، ولم يعد جنود

الفرس إلى خيامهم بل تركوا معداتهم وأرزاقهم، فالهاربون من الميدان إما ماتوا بسبب الغبار الكثيف، أو بسبب العطش؛ لأنهم تأخروا حتى وصلوا نهر ديالى إذ يبعد ثمان ساعات عن موقع القتال.

لا بل مات ستة عشر ألف رجل بعد أن شربوا من ماء النهر المذكور.

في هذه الأثناء إذ اطلع أحمد باشا والي بغداد على هذه الأمور بوساطة دلي خليل الذي ما أن بدأت المعركة حتى عاد وهو راكب حصانه الأصيل وبزيه الفارسي، فخرج من جديد مع عدد من الانكشاريين وتوجه إلى خيام طهماز قولي خان حيث كانت المقاومة قد ضعفت فبدأوا بجمع الغنائم المفيدة للناس المحصورين في داخل المدينة، وهؤلاء بدورهم خرجوا إلى تلك الأماكن وفي ساعات قليلة انتشروا بين خيام العدو.

دخل طوبال عثمان إلى المدينة يوم الثلاثاء صباحاً على رأس جيشه، أما طهمازخان فقد انسحب مع العدد القليل من جيشه إلى سوسة أي همدان.

وكان القائد المنتصر قد أمر أربعة بواشية باللحاق به مع جنودهم إلى معبر Tachi حيث يوجد ممر ضيق من جبال القوقاس ويتوقفوا هناك لحراسة ذلك الممر إلى أن يبلغهم بتعليمات جديدة.

حصار آخر:

وما إن وصل طهماز قولي خان إلى سوسة حتى أسرع إلى تكوين جيش جديد خلال سبعة وعشرين يوماً، وخصص لكل جندي حصانين ليسرع السير على الأول بكل طاقته، فإذا تعب أو كاد أن يسقط يتحول إلى

الحصان الآخر الذي كان مرتاحاً، وجاء فانضم إلى عسكره جيش من قزوين قوامه عشرون ألف جندي بقيادة ميرزا بيك ابن قولي خان البكر الذي كان قد تركه حاكماً على همدان.

تحرك هذا الرجل الذي لا يكل على رأس جيشه اللجب من سوسة باتجاه بغداد لكي يحاصرها للمرة الثالثة، وسار سيراً حثيثاً لمدة خمسة أيام ليصل قرب معبر Tachi أي الممر الضيق في جبال القوقاس، وكان يعلم جيداً أن هذا الممر يحرسه أربعة باشوات أتراك لذلك قام أحد جنوده فلبس زي الانكشاريين وكان يتكلم اللغة التركية بطلاقة، فزور ختماً باسم طوبال عثمان وحرر رسالة مزورة قال فيها بأنه علم أن طهماز قولي خان قد أعد جيشاً جديداً وتقدم لحصار بغداد ولذلك أرسل لهم عونا أربعمائة من المقاتلين الانكشاريين لكي يحرسوا جيداً ذلك المعبر الضيق.

فاستلم الجندي الرسالة وسار ليلاً من جهة مقابلة من الجبل مع رفيقين آخرين كان واجبهما مراقبة الطريق، ولما استطاع أن يصل إلى نقطة القيادة عاد الرفيقان لينضما إلى عدد من الرجال الفرس الذين لبسوا زي الانكشاريين واستعدوا للسير مع طلوع النهار ليصلوا إلى الأتراك كما قالت الرسالة.

لقد نجح المخطط جيداً، فإن الرجال الفرس الأربعمائة عبروا الجبل مع بزوغ الشمس، وظهروا في مواجهة الأتراك، حيث كانت خيامهم، فاحتلوا الطريق الوحيد الذي يقود إلى بغداد، وصار من المستحيل المضي دون الوقوع في أيديهم.

وعندئذ أكمل طهماز مسيرته مباشرة باتجاه المعبر الضيق المشار إليه.

كان الباشوات الأربعة الذين انخدعوا بالرسالة المزورة التي تبشرهم بوصول المدد قد فرحوا جداً عندما رأوا الانشكاريين المزورين عند الصباح وهم يتوجهون نحو خيامهم، فجلسوا يعدون القهوة كل واحد لرفاقه.

ولم يمض وقت طويل إلا وطهماز قولي يفاجيء هؤلاء من حيث لم يتوقعوا فيمطرهم بوابل من النار، فخاف الأتراك وحاولوا الهرب من الجبل لكنهم قوبلوا من الفرس الذين كانوا بزي الانكشاريين ففرقوهم وقطعوهم إربا إربا ولم ينج منهم أحد.

ولم يضيع الفرس وقتهم إذ عروا القتلى، وبالسرعة نفسها مضوا في طريقهم إلى بغداد.

وبعد يومين عبروا جسر ديالى وكان يسير في المقدمة الرجال الذين لبسوا الزي التركي، وهي الألبسة التي غنموها عند المضيق، فكانوا يوقفون كل شخص يرونه؛ لكي يحولوا دون وصوله إلى المدينة فلا يصلها خبر تقدم الفرس.

وبينما كان سكان المدينة مطمأنين بأن العدو لن يباغتهم كان الفرس قد وصلوا على بعد ساعة من بغداد!

استطاع رجل عربي (بدوي) أن يوصل خبر تقدم جيش الفرس إلى أحمد باشا بينما كان يشرب القهوة مع طوبال عثمان فلم يصدقا الخبر، لا بل أمر بالقبض على الرجل وزجه في السجن، وبينما كانوا يقودون الرجل إلى الحبس إذا برجلين عربيين آخرين استطاعا أن يعبرا النهر سبحاً فأعطيا الخبر نفسه، ولا حظ الرجال الذين فوق الأسوار غباراً يتصاعد من بعيد هو الغبار الذي كان يثيره الجيش الفارسي.

وفي الحال أغلقت الأبواب بينما كان رجال مقدمة جيش العدو على بعد نصف ميل لا أكثر.

لم يستطع القائد العام ولا الباشا أن يتصوروا كيف حدث ذلك بسرعة من دون أن يصلهم خبر البتة عن سير العدو.

مهما يكن من أمر فلم يعد هناك مجال للشك فأسرعوا لجمع الجيش وسار على رأسه طوبال عثمان وخرج لملاقات العدو.

فلما شعر قولي خان بأن عدوه قد اكتشفه أمر بالتوقف على طول النهر والتخندق هناك لحماية أنفسهم، وأقام جنوده ملاجيء مختلفة بالقرب من (أمام أزان) Imamazan[١]، واستراح الفرس مدة يومين ونصف قبل أن يلتقوا مع الأتراك في ميدان المعركة.

بينما خرج الجيش من بغداد بكل معداته وتقدم نحو الفرس ونشبت معركة شرسة سال في ساعتين من الزمن دم كثير من الطرفين، وظهر أن النصر معقود للفرس فشمر الانكشاريون سيقانهم للريح وبقي القائد الأعلى طوبال عثمان متروكاً، من أصحابه فرمى بنفسه من على الحصان في النهر كما يليق بالمقاتل الشجاع، ولم يترك الميدان حتى أصابته ضربة رمح فسلبته الحياة، وبعد ذلك إنقض عليه أحدهم بضربة سيف ففصل هامته عن جسده.

---

(١) أظنه يريد الإمام الأعظم.

قصة عثمان الأعرج:

يطيب لي في هذا المقام أن أذكر ما عرفته عن حياة هذا الرجل، فقد احترمه الفرنجة من مختلف البلدان الأوربية وأحبوه.

إنه جيورجي الأصل[1]، وقد حمل كعبد إلى السلطان عوضاً عن الجزية، وإذ رآه حسن الأخلاق قدمه وجعله بين أيك ـ آغا Aga ـ Ic أي الخدم الخاص الذين يعهد إلى كل واحد منهم واجب معين، فكان واجب هذا الجيورجي الإعتناء بعمامة السلطان.

بعد سنوات عديدة من خدمته، وإذ كان مجتهداً في واجباته تقدم في الوظيفة حتى صار قبوجي ـ باشي أي المبعوث الرسمي الذي يحمل حبلاً من حرير إلى الباشوات الذين يحكم عليهم السلطان بالموت فيشنقون بذلك الحبل، وهذه وظيفة في عرف الأتراك مهمة جداً.

وقد جرى إختياره وأرسل لقطع رأس واحد من الأربعة والأربعين بكات في القاهرة الكبرى، فركب مركباً متوجهاً إلى دمياط لكن القراصنة باغتوا المركب فدافع عن نفسه ببسالة وقاتل بشجاعة وجرح كثيراً، والجرح الأصعب كان من جراء طلقة نارية أصابته في فخذه جعلته بعد ذلك يعرج في مشيته ولذلك عرف منذ ذلك الحين بلقب طوبال أي الأعرج.

سيطر عليه القراصنة وكتفوه وكبلوه مع رفاقه بالحديد، ومن حسن حظه أنه اقتيد إلى مالطة.

---

(١) وقيل إنه ولد في اليونان، أنظر: لونكريك: أربعة قرون، ص ١٧٣.

هناك صعد قائد الميناء وكان اسمه السيد ارنو Arnaud المولود في مارسيليا، فلما رآه عثمان كلمه بصراحة قائلاً، "خذني يا سيدي كعبد لخدمتك وأنا أؤكد لك بأنك لن تندم" فسأله القبطان من يكون؟

ولماذا يطلب منه أن يشتريه؟ فأجابه عثمان: "أنا مقيد بالسلاسل، وإذ تروني بهذه الحال لا تصدقونني، لكن أقول لك خذني وسوف لن تندم على فعلك هذا"!.

أعجب السيد ارنو بكلام الشاب وبطريقة تصرفه، ولذلك تقدم لشرائه وأبرم عقد افتدائه، ولم يكتف بذلك بل أصعدة على مركب آخر نقله إلى محل لينال العلاج على يد جراح خبير.

فلما انتهت مدة العلاج والنقاهة نقله إلى اليابسة وأنزله في بيته وعامله معاملة حسنة، وهو لا يعلم عنه سوى أنه شاب دافع عن نفسه دفاعاً باسلاً في القتال.

وبعد مرور بضعة أيام إختلى به سيده وسأله بإلحاح عن ظروفه، وبعد أن كرر عليه السؤال لم ينل منه إلا هذا الجواب: " قلت لك يا سيدي إتخذني عبداً وسوف لن تندم، ولهذا لا أقدر الآن أن أزيد على ذلك شيئاً، وأرجوا أن تسمح لي بالذهاب إلى القاهرة فأكمل الواجب الذي انتدبت له من قبل السلطان، فإذا نجحت كما أرجو فسوف أبرهن لك عن صدق قولي وعمق إمتناني".

عندئذ دفع سيده عنه أجور السفر وأصعده على سفينة متوجهة إلى دمياط وطلب من قائدها أن يهتم بعثمان ويعامله معاملة حسنة عند قطعهم البحر وأن ينزله حيث يشاء.

فعندما وصل إلى دمياط هبط إلى اليابسة وقابل آغا المدينة أي سيدها وكشف له عن هويته، واستدان منه ألف زكينو وعباءة وجبة من فرو القاقم.

فسلم المال والهدية إلى القبطان الذي نقله، وطلب منه أن يحملها إلى سيده الذي افتداه في مالطة، وليقل له هذا شيء قليل لقاء ما فعلته معي.

وبعد ذلك أكمل مهمته في القاهرة بحيث أنه ما إن عاد إلى السلطان حتى رقاه وجعله باشا من حملة الطوغين[1]، وذلك في سنة ١٧١٥، وبعد سنوات قليلة ارتفع إلى وظيفة الصدارة العظمى في اسطنبول.

ولم ينس فضل الإنسان الذي افتداه، فكتب إليه رسالة طلب منه فيها أن يأتي إلى بلاده بأسرع وقت مع أحد أنجاله لأنه يريد رد الجميل له ويكمل بذلك وعده له.

فاشترى القبطان أرنو في مالطة إثني عشر عبداً تركياً، وعدداً من طيور الكناري في أقفاص مذهبة فحملها كهدية إلى الصدر الأعظم عثمان.

وعندما حضر إلى اسطنبول دخل إلى الديوان حيث كان عظماء الدولة مجتمعين، فما أن وقع نظر عثمان على محرره السيد أرنو حتى نهض من مكانه وأسرع ليستقبل ضيفه مما أغاظ الحاضرين إذ كيف يقوم الصدر الأعظم أمام رجل هو في عرفهم إنسان كافر!

فالتفت إليهم طوبال عثمان وقال: "أيها السادة، تعتقدون بأنه لا يجوز مثل هذا الإكرام لمثل هذا الرجل الذي هو في نظركم كافر، لكني

---

(١) الطوغ سبق شرحه.

أؤكد لكم بأنه ليس بينكم من هو مثل هذا الرجل"! ثم بدأ يقص عليهم ما جرى له وأضاف: "أروني رجلاً مسلماً يفعل ما فعل هذا الإنسان".

ومدح عثمان أمام الجماعة النبيلة الحاضرة الهدية التي حملها أي العبيد الذين جلبهم أرنو.

وأمر بأن يعامل ضيفه مع ابنه أفضل معاملة، ثم قدم له كمية من أكياس النقود والبسة ثمينة، وأمر كذلك بأن يحمّلوا السفينة بالحنطة لتنقل إلى مالطة.

وأخيراً حث صاحبه أكثر من مرة أن يبقي ابنه في اسطنبول لكنه في آخر الأمر سمح له بأسف أن يرحل بعد أن زودهم بالوثائق الضرورية، واحتفظ طوال أيام حكمه بروابط حسنة مع الدول الأوربية، وأشياء كثيرة أخرى عمل لكنها تخرجنا عن موضوعنا.

لكني أذكر كيف تسنم القيادة العليا على الجيش التركي الذي أعد لإغاثة بغداد، وكيف أنه أنهى حياته بالقرب من هذه المدينة في المعركة الثانية التي أثارها قولي خان.

ففي هذه المعركة قتل بطعنه رمح فسقط في نهر دجلة، واني تكلمت أكثر من مرة مع ذلك الرجل الفارسي الذي قتله.

كان هذا في حلب وقد حصل على علاج من طبيب كان في روما، وعندما خرج طوبال عثمان إلى المعركة ضد الفرس قال لأحمد باشا: إن سيدي لن يعود إلى هذه المدينة بل سيقتل في هذا اليوم، وهذا ما تحقق فعلاً!.

كان النصر حليف الفرس في هذه المعركة، ثم عثر طهماز قولي على جثمان طوبال عثمان، وبالرغم من قطع علاقته بالأتراك فإنه أرسل جثمانه إلى المدينة لكي يشيع ويدفن كما يليق به؛ لأنه كان معجباً بذلك المقاتل الشجاع.

وأكمل حصاره للمدينة وكانت على وشك الاستسلام لقلة المؤونة والعدد، ولكنه اضطر إلى قبول السلام مع أحمد باشا لكي يعود إلى بلاده بسرعة من جهة تبريز، فقد بلغه بأن الكوبرلي، وهو من أقرباء السلطان قد تحرك بقوة قوامها مائتي ألف محارب مع عشرين ألف رجل نظامي ليغزوا بلاد فارس كلها إنطلاقاً من تلك الناحية.

إدارة السلطان:

وقبل أن ينسحب الفرس ويفكوا الحصار عن بغداد، كان السلطان قد جهز في اسطنبول جيشاً مكوناً من سبعين ألف مقاتل ليغيثوا بغداد إذا ما دعت الحاجة، وكان السلطان قد أوعز إلى الباشا قائد هذا الجيش أن يقطع رأس أحمد باشا، وبعد أن يكمل المهمة يبقى هناك في الحامية ويدير شؤون المدينة.

وكان القبوجي المكلف بأداء هذه المهمة تحت إمرة القائد العام شاك في نجاح هذه الخطة ولا سيما أنه كان فرنسي الأصل، ولذلك تنكر ودخل المدينة وتوصل إلى إخبار أحمد باشا بما هو مبيت له ولأي سبب أرسله السلطان.

فلما علم الحاكم البغدادي بأن حياته معرضة للخطر استشار رجاله فنصحه الشيوخ من ذوي الخبرة والفطنة أن يسرع فيعبر النهر مع جنده

وحرمه ويلتجيء بأرض ما بين النهرين، فقام بفعل ذلك على الرغم من أنه - على ما يقال - لم يكن مقتنعاً به.

في صباح اليوم التالي دخل الوزير الجديد إلى المدينة (بغداد) مع جنوده، وبقي مذهولاً عندما رأى السراي خالياً، ولم ير لائقاً أن يتعقب الباشا الهارب.

أما أحمد فقد سار تائهاً في أرض بين النهرين مع أتباعه، وكان يعتاش على ما يقدمه له الأمراء العرب.

وبقي على هذا الحال مدة سنة إلى أن سويت أحواله مع الباب العالي إذ أقامه والياً على الرها EDESSA (أورفا)، وفي المدة التي قضاها هناك شيد ثلاث عمارات جميلة جداً من أساساتها لا تزال قائمة إلى اليوم تعبر عن زمن جميل.

علاقات سرية:

حاول أحمد باشا في زمن نفيه أن يتصل بسرية تامة مع طهماز قولي خان الذي استغرب عندما سمع بأن مثل هذا الرجل الشجاع والأمين الذي استطاع أن يصد حصاراً بعد حصار أن يكون مضطهداً من قبل الوزراء الآخرين لا لشيء إلا بدافع الحسد.

لذلك قدم نفسه للمساعدة وعرض على أحمد باشا إن أراد أن يأتي لخدمته فهو مع كل أتباعه على الرحب والسعة.

لكن أحمد الذي حنكته الأيام لم يثق بمثل هذا العرض، فشكره عليه لكنه طلب منه إن استطاع أن يساعده لكي يرجع إلى إدارة بغداد التي أبعد

عنها من دون وجه حق.

وكان أتباع أحمد الذين بقوا في بغداد يقومون بثورات مسلحة فاستطاعوا أن يبعدوا عن مدينتهم والبين جاء الواحد بعد الآخر لتسنم إدارة المدينة[1].

وفي ذلك الحين كان قولي خان قد زحف على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل نحو أرضروم وقارص[2] Charz لمحاربة الكوبرلي، وبقي الجيشان يراقب أحدهما الآخر عدة أشهر عن كثب.

وفي أحد الأيام لاحظ - قولي خان - بأن العدو كان مخيماً إلى الشرق من جبل صغير عند فتحة تؤدي إلى واد منخفض، فوجد أن هناك فرصة سانحة لبدء المعركة مستغلاً حال المكان الذي نزل فيه الأتراك، فأعد عشرة آلاف رجلٍ من القزلباشية[3]، وأرسلهم ليذهبوا إلى الجهة المقابلة من الجبل ويبدأوا الهجوم، كما أرسل في أثرهم في الطريق نفسه عشرين ألفاً آخرين وأمرهم أمراً صريحاً أن يقطعوا إرباً إرباً الجماعة التي سارت قبلهم إن رأوا من أولئك الرجال تراجعاً.

أما هو فقد تحرك مع جيشه ليواجه مقدمة جيش الأتراك وانتظر ريثما

---

(١) هما إسماعيل باشا (١٧٣٤-١٧٣٥م) ومحمد باشا (١٧٣٥-١٧٣٦) وكان قديراً في الإدارة لكنه كان مبتلى بداء الفيل الذي أقعده عن العمل، الكركوكلي: دوحة الوزراء ص ٣٨؛ العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٥: ٢٤٧.

(٢) مدينة في الأناضول على نهر بالاسم نفسه.

(٣) القزلباش (تركية) أي ذوو الرؤوس الحمر، وهم أتباع الطريقة الصفوية، وكانوا يستميتون في الحروب من أجل مليكهم.

يهاجم العشرة آلاف قزلباش مؤخرة الأتراك، فكانت ملحمة أجاد فيها المقاتلون فحاصروا الكوبرلي الذين شمروا سيقانهم للريح، لابل فر من الميدان حتى القائد التركي وكان ممتطياً حصانه، فأراد أن يقفز من فوق حفرة واسعة فسقط من على حصانه وكسر عظم كتفه، وبقي هناك ودفن قبل ان يموت إذ داسته أقدام العصماني الهاربين، ومن ذلك الجيش الكبير المكون من مائتي ألف مقاتل لم يخلص غير ثلاثين ألف أطلقوا سيقانهم للريح. . . . وبقي قولي خان سيد الميدان فاستولى على بقايا المحاربين ومعداتهم.

أحمد باشا قائداً عاماً:

فلما بلغت أخبار إندحار جيش السلطان هذا الإندحار الشائن خيم الخوف في كل مكان ورأى ـ السلطان ـ أن أفضل الحال لهذه الحالة أن يعلن باشا الرها (أورفا) قائداً عاماً لكل جيوشه.

هذا الذي أرادوا قطع رأسه قبل سنتين لو لم يسرع بالهروب من بغداد!

فكتب إليه السلطان طالباً منه أن يتسلم قيادة جيوشه، وأعلنه وزيراً مفوضاً من أجل إبرام إتفاقية سلام.

وأعطاه مبالغ كبيرة من المال، وقد أخرج من السراي ومن القسطنطينية (اسطنبول) السنجق أي الراية الخضراء الخاصة ـ بالنبي ـ محمد التي لها قدسية عظيمة عند المسلمين.

فجمع تحت ظلالها في زمن قصير جيشاً عظيماً قوامه مائة وستة عشر ألف مقاتل، وأضاف إليهم عشرين ألفاً آخرين إتخذهم القائد أحمد على

حسابه الخاص فاجتمعوا بالقرب من أرضروم، وهناك ومن دون أن يتقدم العدو قولي خان بدأت المباحثات بروح الصداقة، وجرى التوقيع عليها من الطرفين، وأهم أبواب السلام كانت كما يلي:

الأول: تبقى للفرس تبريز وما يتبعها من قرى في تلك المناطق التي سيطر عليها العثمانيون في الحروب الأخيرة التي قام بها الأفغان.

الثاني: أن تكون الحدود بين المملكتين كما كانت سابقاً على عهد الشاه حسين[1].

الثالث: أن يسرح الأتراك كل ما عندهم من الأسرى الذين وقعوا في الأسر في الحروب الأخيرة من دون دفع مبالغ لقاء ذلك.

عندما انتهوا من إبرام هذه المعاهدة أقسم الطرفان على الالتزام بما ورد فيها، وأرسل القائد العام نصها إلى السلطان الذي أراد أن يجازيه تقديراً له فأرسل إليه ختمه الخاص وأعلنه وزيراً أعظم ليجعله بذلك تحت أنظاره بسهولة وأن يشد عنقه بحبل متى ما أراد.

لكن أحمد باشا الفطن شعر بالمكيدة، فتقبل بالشكر ختم السلطان لكنه سار على رأس جيشه نحو اسطنبول بصفته الوزير الأعظم، وفي مسيرته حاول اكتساب النفوس بمعاملته الطيبة مع الضباط والجنود.

وكانت مسيرته نحو تلك العاصمة الكبرى على مراحل، وعندما وصل على بعد مسيرة أربعة أيام منها أمر الجيش أن يهجموا على القرى وينزعوا من الناس الفقراء بالقوة المؤون الكثيرة، وكأنه بعمله هذا كان يخطط

---

(١) السويدي: حديقة الزوراء: ص ٣٨٦، الكركوكلي: دوحة الوزراء: ص ٣٨.

لحصار العاصمة: فخرب القرى وأحرق الريف ونشر الهلع في النفوس في طول الأناضول وعرضه بحيث وصلت أخبار هذا التصرف المخيف إلى السلطان الذي راوده الشك بأن وزيره الأعظم يسير إلى اسطنبول كعدو، فأراد أن يخلص نفسه وأن يخلص المدينة كلها فكتب إلى أحمد باشا يأمره بالتوجه إلى بغداد حيث كان سابقاً، وأنه لهذا السبب أقامه وزيراً أعظم ولاسيما أنه قد بلغه بأن قولي خان يعد العدة لمحاصرة تلك المدينة، وهكذا جابه هذا السلطان الفطن الحيلة بالحيلة كما أظهر ذلك دائماً السلطان العظيم محمود الخامس[١].

عودة أحمد باشا إلى بغداد:

أطاع أحمد باشا أمر السلطان في الحال، وفرق الجيش، وأخذ جنوده الخاصين والذين يخدمون في حاشيته، وبسرعة فائقة إخترق أرمينية الوسطى فوصل إلى ديار بكر، وفي هذه المدينة أراد أن يقدم أنموذجاً من عدله الأصيل فقرر أن يحكم على أحد المواطنين وكان جباراً مستبداً نحو السكان المساكين فقبض عليه، فحاول بكل الطرق أن يخلص نفسه من العذاب المرير وبأي ثمن، حتى وصل إلى حد تقديم ألف كيس من المال.

دخل أحمد باشا إلى بغداد دخول الظافرين، وفي سردي لهذه الأحوال ولتصرفات الباشا السخية والنبيلة فأنا شاهد عيان، وأضيف بأنه بعد مرور أشهر قليلة على عودته أصبح ملكاً على مدينة الخلفاء بغداد، وكان مطمئناً من جهة العاهل الفارسي طهماز قولي خان بأنه يسانده.

أما وصي العرش الفارسي فإذا اطمأن على حدود المملكة من جهة

---

(١) زلة قلم أو خطأ مطبعي.

أرضروم فقد أرسل قسماً من جيشه لمساعدة بعض العرب من حلفائه الذين كانوا يخططون للسيطرة على البصرة.

وكان قائد هذه الحملة خان الحويزة[1] Auiza لكن هذه القوة الفارسية دحرتها ثلاث سفن إنكليزية كانت قد جاءت من الهند، فأفرغت حملوتها في هذا الميناء وكانت منتظرة هبوب الرياح لتعود إلى البنغال.

كان القنصل الإنكليزي اسمه المستر فرنك (الذي ذكرته سابقاً عند وصولي إلى بغداد) فقد طلب منه أحمد باشا أن يقف إلى جانب هذه المدينة - أي البصرة - ويدافع عنها كما سبق له أن طلب منه أيام حصار بغداد بأن يخصص سفينة لنقل نساء السراي إلى البنغال فلبى القنصل طلبه في الحال ووضع تحت تصرفه سفينة، ولم يكتف بذلك بل جعل من نفسه شخصياً قائداً لتلك السفينة، فقدر الباشا كثيراً هذا الموقف اللطيف ولذلك دعاه مرتين للمجيء من البصرة إلى بغداد.

وعندما جاء في المرة الأولى قدم له هدية تساوي قيمتها عشرين كيساً، وفي المرة الثانية ما يساوي ثلاثين كيساً وأكثر من ذلك، وأضاف إلى تلك الهدية خنجراً شخصياً كان يحمله على بدنه وكان مزيناً بأحجار كريمة.

وبيتنا في بغداد مدين لهذا القنصل فقد تبرع بمبلغ ثمانمائة قرشٍ سلمها بيد زميلي الأب عمانوئيل.

وأضيف إلى ذلك من أفضاله أنه ما كان يدع أحد الآباء المرسلين الذين يمرون بالبصرة إلا ويساعدهم بصدقة ما.

---

(١) وهي مدينة في بلاد الأحواز العربية، وتخضع اليوم لإيران، وموقعها على الحدود العراقية.

حياة المؤلف العادية:

عندما كنت في همدان كنت أدور يومياً طيلة النهار من بيتنا إلى السراي لأشبع جوعي عادة! ثم وقعت مريضاً ولم يكن عندي من يساعدني؛ لأن خادمي منصور الحلبي تركني عندما رآني بالكاد أقوم بأودي، فذهب يبحث عن عمل في مكان آخر.

لكني لم أبق وحدي فإن تاجراً اسمه غريغور كان قد أفلس في زمن الحصار الأخير الذي جرى لبغداد فالتجأ إلى بيتنا وكان يقدم لي خدمات عندما لا يكون تحت تأثير الخمر، فيرفه عني قليلاً لأنه كان نشيطاً، لكنه كثيراً ما كان يشرب حتى الثمالة فلا يرجع إلى البيت أو إذا عاد ينام نوماً ثقيلاً.

حدث لي أني نهضت في إحدى الليالي لأمر ما وإذ برجلي لا تقويان على الوقوف، فسقطت أرضاً ولم استطع القيام، فبقيت منطرحاً على الأرض فهبطت درجة حرارتي، لأن برد الأرض إمتصها فأخذتني سنة النوم ورقدت في مكاني، وعندما استيقظت أخيراً وجدت نفسي متجمداً، فرفعت فكري إلى الله القدير طالباً عونه ورحمته... أخيراً جاء غريغور وبمساعدته عدت إلى فراشي على الرغم من آلامي، لكني أصبت بروماتيزم عام في كل جسمي فبقيت مسمراً في مكاني ثلاثين يوماً، وبقي ضيفي (غريغور) منذ ذلك اليوم واقفاً على حراستي، ولو أنه أظهر ضجره بعد أيام وأراد الرجوع إلى عاداته القديمة.

محسن مجهول:

في أحد الأيام وأنا في تلك الحال الصحية البائسة دخل عليّ شاب ابن خمسة عشر عاماً يلبس الزي الجيورجي، فسلم علي وتكلم معي بالإيطالية فقال لي: "يا أبتي إني لم أصادف منذ زمان طويل رهباناً"، وإني لأتأسف جداً أن أراك بهذه الحال، وقد سمعت عنك الكثير، وإذ أعلم أنك لا تملك ما تعتاش به فقد أردت أن أقاسمك المال القليل الذي هو تحت تصرفي".

وأخرج ثلاث عشرة قطعة من فئة المحمودي[1] Mamodi وهي نقد تساوي الواحدة منها ٨ سولدو[2] الفضية.

كانت جديدة كأنها خرجت تواً من معمل سكها، أو أنها نقشت في تلك الساعة، أراد الشاب أن يسلمها بيدي، لكني لضعفي لم أستطع أن أمد يدي لتسلمها فطلبت منه أن يضعها على حافة الجدار حيث كنت أضع السراج في الليل، فوضعها حيث أشرت عليه ثم تركني وذهب، ولم أكن متأكداً مما جرى وظننت بأني أرى رؤية نتيجة مرضي، لكني تمالكت على نفسي وقمت لأتحقق من وجود النقود فإذا هي هناك فعلاً.

في آخر أيام تشرين الأول سنة ١٧٣٣ كنت قد استعدت قواي ولذلك استطعت أن أذهب إلى قصر الحاكم لطف علي خان الذي دعاني في أحد الأيام واختلى بي ثم سألني: "أريد أن أعرف منك إن كان ابن عمي طهماز

---

(١) محمودي نقد ضرب أيام السلطان محمد الفاتح، العزاوي: تاريخ النقود، ص١٤٣.

(٢) سولدو نقد، من اللاتينية وهو جزء من نقد أكبر.

قلي خان الذي يستعد لإرسال سفير إلى اسطنبول: هل يا ترى سيعترف به السلطان ملكاً على بلاد فارس؟".

ولم أكن أعرف بماذا أرد عليه، وكان يلح عليّ بأسئلته، لا بل يهددني كما لو كنت منجماً أو نبياً، فاضطررت في آخر الأمر أن أقول له نعم، وقد تحقق ذلك لاحقاً.

عندما وصلت إلى همدان علمت بأن في الجهة الثانية من جبل (الوند) مر باشا تركي مرسل من قبل السلطان بصفة سفير إلى نادر شاه، وكان يرافقه طبيبه الخاص وهو فرنسي الأصل واسمه موسيو أوتر[1] Other وعلى ما قيل لي إنه أصبح في وقت لاحق أمين المكتبة الملكية في باريس، وأعلم أنه ترك بعض المؤلفات ونشر ذكرياته بالطبع، وقد نوه بشخصي في كتابه لأننا التقينا أكثر من مرة في مناسبات مختلفة كما سأذكر لاحقاً.

وقد أرسلت له في أحد المرات مرطبات أعجبته وقدرها عالياً كما تشهد بذلك رسائله التي بعثها إلي من أصفهان حيث عاش أكثر من سنة... وقد تعلم السيد أوتر الفارسية في أقل من سنة قراءة وكتابة وتكلماً، وكذلك الأرمنية، واقتنى للمتحف الملكي قطعاً أثرية كثيرة ومخطوطات، مظهراً بذلك علمه وحكمته، وجرت بيننا مراسلات أدبية وثقافية.

لكن هذه المراسلات توقفت في شهر أيلول عندما وصلتني أخبار من بغداد مفادها أن أحوال المسيحيين هناك مضطربة، وأن الأب الكرملي

---

(١) عمل في الشرق ونشر كتاباً سنة ١٧٤٨ عنوانه (رحلة في تركية وفارس)

Voyage en Turquie ct en Perse, Paris 1748.

رفيقي قد القي القبض عليه يوم عيد العذراء أي في ١٥ آب من تلك السنة، وأن بيتنا والمصلى الملحق به قد أُغلقا بأمر الحاكم، كما علمت أيضاً بأن المسيحيين فرضت عليهم غرامة مقدارها خمسون كيساً، فكان علي أن ألبيَ دعوتهم وأهرع لنجدتهم.

التحقت ببعض التجار فوصلت إلى كرمنشاه في ثلاثة أيام، والتقيت هناك بالسيد داريل Darel الوكيل الإنكليزي، وبفضله أعيد البيت إلينا وحصل الأب على الحرية.

وكان هذا الأب قد خاف من المشاكل المحلية فانتقل إلى البصرة وأرسل يحثني على الإسراع بالمجيء، فأكملت سيري ومررت بطريق تاكي Tachi وهناك رأيت على قمة الجبل كتابة جميلة بأحرف لاتينية نقشت تخليداً لـ (لابيانو بارتو) وقد قرأت الأحرف فقط، وأقر بإهمالي إذ لم أنقل الكتابة كلها لأذكرها هنا.

وبعد ستة عشر يوماً من خروجنا من سوسة وصلنا إلى بغداد حيث وجدت الأب المذكور زميلي في الرهبانية وقد عاد من البصرة لمرض أصابه، كما رأيت الأخ الراهب فرانكو وكان سعيداً جداً بقدومي.

وبعد أيام قليلة شفي الأب من مرضه، وقد كتبت إلى رؤسائي في روما طالباً التعليمات لكي أترك بغداد، لأني كنت أريد أن أعود إلى همدان، وانتظرت جواب رسائلي...

عدت إلى همدان أخيراً في ٢٤ كانون الثاني، ولكن بعد أشهر قليلة دعيت من جديد للمجيء إلى بغداد، فقد طلبني رفيقي لأن حال المسيحيين فيها قد أصبحت لا تطاق بسبب الغرامات التي فرضت عليهم، ثم رحل

ذلك الأب وجاء عندي وفد من أربعة عشر رجلاً ليقولوا لي بأنهم لا يريدون من الآن فصاعداً رهباناً، ولذلك طلبوا مني أن أرحل عن المدينة، لا بل أضافوا قائلين: "إن لم أرحل تلقائياً فإنهم سيلجأون إلى الوالي نفسه لكي يخرجني قسراً".

فأجبتهم قائلاً: "إني لا أستطيع أن أذهب لأن رهبانيتي لها دير في هذه المدينة، ولا يجوز طردي فأنا لم أقترف ذنباً، وإني سوف لن أذهب إلى بيت من بيوتهم، لكني لا أمنع أحداً منهم من المجيء إلى بيتنا".

لقد أرادوا أن يمنعوني من استقبال أي فرد كاثوليكي غريب ليسمع القداس.

فأجبتهم بأني لا استطيع أن ألبي طلبكم بهذا الخصوص، ولن أمنع أي شخص من زيارتي لاحتياجاته الروحية والجسدية لأني لهذه الغاية أرسلت.

وإذ رأيت الحاحهم في هذه الطلبات الغريبة شرعت أحاججهم لمعاملتهم غير العادلة نحوي ونكران الجميل إزاء الخير الذي عملته معهم، والاهتمام الذي أبداه نحوهم رهباننا منذ سنين[1].

ثم عاتبتهم بسبب الشكوك التي تبدر عنهم والتي سينالون عنها عقاب الله كعدم إلتزامهم بالأعياد الدينية وفتحهم الدكاكين في تلك المناسبات، لا بل وبخت بقوة ابني رجل شيخ فارق الحياة بحضوري وأُلحُّ بطلبهما لكنهما لم يأتيا ليسلياه ويسعفاه في ساعته الأخيرة.

(١) قدم الآباء الكرمليون إلى بغداد سنة ١٧٢١ بمجيء أحدهم من البصرة وهو الأب يوسف من إقليم بورغونيا، لكن التاريخ الثابت هو بوصول الأب عما نوئيل بايبه سنة ١٧٢٨ الذي بقي إلى وفاته فيها سنة ١٧٧٣.

قال أحدهما بأن الضرائب المرهقة التي يؤدونها ما هي إلا بسبب خطاياهم.

ثم التفت إليّ وقد غير لهجته فنصحني بأن ألزم الدار وأن لا أسمح لأحد أن يدخل البيت في أثناء المراسيم الدينية إذ ليس لنا الإذن من الوالي الحالي، وأضاف: "إن تصرفتم خلاف ذلك فإنكم ستدفعون الثمن غالياً".

عرفت عندئذ، بعد أن فكرت ملياً مغزى كلامهم فودعتهم بلطف، ثم رأيت أن أغير موعد إقامتي الصلوات، فعوض عن البدء بالقداس في مطلع النهار، زحفته إلى منتصف النهار على أن أخبر المسيحيين البغداديين وأكتمه عن الآخرين.

ومر شهران ولم يأت أحد منهم إلى الدير وما كنت أقدر أن أزورهم في بيوتهم.

لياندرو يمارس الطب:

في ذلك الزمان أذعت بين الناس بأني أمارس الطب وأني مستعد أن أزور من يطلبني؛ لأن سكان هذه الديار يعتقدون بأن كل الأوربيين الذين يحلون في بلادهم هم أطباء[1]، مرسلين إلى تلك الأنحاء من قبل ملك

(١) مارس المرسلون رسالة الطب سواء أكان في بغداد (الكرمليون) أم في الموصل (الدومنيكان)، إذ كانوا يدرسون في بلادهم مبادىء الطب - أنظر: بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة، ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ١٩٥٤، ص ٤.

فرنسا للاهتمام بشؤون رعاياه العاملين هناك في ميدان التجارة.

وكان لي إطلاع بعض الشيء في أمور الطب، وكنت قد مارست ست سنوات أو سبع وظيفة الممرض بين رهباننا، وحضرت في أثناء إعداد الأدوية في صيدلية العطارين في فتوريا (روما).

وكان لي إذن من رئاستي أن أمارس هذه المهنة في الشرق عند الضرورة، ولذلك أعلنت ذلك الخبر بين الناس كي لا أترك ظل شك عند أحد السكان وباني لا أدخل البيوت بصفتي الدينية ولن أسمح لهم بالمجيء عندي.

وشاء الرب الإله الذي ينظر إلى ما في القلوب ويعرف غايات تصرفي هذا أن يبارك في مسعاي، فقد عالجت بعض الحالات ونجحت، فانتشر في المدينة خبر بأني اجترح الأعاجيب.

كانت الحال الأولى أني دعيت لمعالجة أحد خدام الباشا، وكان مطروحاً في فناء بيته منذ ثلاثة أيام لا يستطيع الكلام أبداً، والعلامة الوحيدة على أنه لا يزال على قيد الحياة أنه كان يتنفس.

فذهبت في الحال، وكان منظره وكذلك نبضه يشيران إلى خطورة حاله، ففتحت فمه بالقوة وفحصت أسنانه ولسانه وقطرت في فمه مقدار ملعقة من الماء الفاتر ومن بلسم خاص (. . .) لقد شفي بمشيئة الله إذ عاد لونه الطبيعي وبدأ يتكلم، وإذ كان أهله قد يأسوا من حاله واعتبروه منتهياً فإذا به يعود إلى الحياة.

فانتشر خبر شفائه في المدينة، ورويت حاله على الوالي الذي دعاني لعلاج حاله أخرى.

كبرت على أثر ذلك وجاهتي في المدينة، وانتشرت سمعة حذقي الطب، بحيث أن كثيرين من الأتراك كانوا يتوسطون لدى نصارى المدينة الذين يعملون في خدمتهم لكي يأخذوني إلى بيوتهم، وما كنت أستجيب لهؤلاء إلا بعد أن يكملوا واجباتهم (الدينية) ولذا كنت أتركهم ينتظرون، ولقد حسوا مع الوقت بخطأهم.

ولذا ففي أحد الآحاد جاء بعضهم عندي في بيتي، وكانوا على ما أذكر خمسة أو ستة ورجوني أن أنسى الماضي، وأنهم قدموا الآن يطلبون مني ألا أهملهم وأمتنع عن زيارتهم في بيوتهم، وأن أقيم القداس في أيام الأعياد في هذا البيت أو ذاك من بيوتهم.

وإذ رأيت فيهم النية الحسنة أظهرت نحوهم عطفي وأعلمتهم بأن لا غاية لي سوى أن أخدمهم بأفضل الطرق لأن هذا هو واجبي لخيرهم الروحي إذ لهذه الغاية جئت إلى هذا البلد، وعندئذ لبيت طلبهم فعادت المياه إلى مجاريها [يروي المؤلف حالات أخرى من المرضى وكيف استطاع أن يجيد العلاج فنالوا الشفاء على يده حتى أن أحد أصدقاء الوالي وهو عسكري أفغاني واسمه عبد الغفور (cafor_Abdel) كان يرافقه عند خروجه للنزهة وقد جرح جرحاً بليغاً فشفي على يده، وعلم الوالي بخبره فأراد أن يرى بنفسه هذا الدرويش الافرنجي كما كان يقال عنه.

وقد سأل الوالي صديقه هذا: "بماذا كافأت الدرويش الذي عالجك وشفاك"؟

فأجابه: "لم أعطه أي شيء"! فغضب الوالي عند سماعه ذلك وطرده من أمامه كما يطرد الكلب (حسب تعبير الأتراك)].

وعوض أن أدعى للذهاب عند الوالي، طلبوا مني أن أزور شماساً أنجيلياً[1] من شمامسة كنيسة الكلدان وكان من أكثر النساطرة تزمتاً في بغداد في ذلك الزمان.

وكانت حاله الصحية خطرة جداً وله عائلة كبيرة على كاهله، وكل أفرادها من أتباع تلك الطائفة، فلبيت الدعوة بهمة عالية، ورأيت أن مرضه سيقوده إلى حتفه وحاله وأحوال عائلته المادية سيئة، فساعدته طبياً ومادياً وبقيت إلى جانبه ولم أتركه، إذ أردت أن أهتم أيضاً بما يخص نفسه.

ولقد قدر الرجل موقفي وفهم غايتي فقال لي في أحد الأيام: "يا أبتي إنك قد غلبتني بصبرك وبمحبتك، وإني أعترف بخطأي وبأني وقفت دوماً ضد الكنيسة الكاثوليكية، لكني أريد أن أموت بين يديك وباتحاد وطاعة مع تلك الكنيسة التي هي بالحقيقة أم المسيحيين".

وبإقراره هذا ربطني إليه فطلبت منه أن يعلن إيمانه ويكتب تعهده ويذيله بتوقيعه بلغته بحيث ينشر على الملأ مما يشجع الآخرين، فقبل عن طيب خاطر وأكمل كل الأمور بحضور عدد كبير من المسيحيين... وبعد ذلك منحته كل الأسرار (الضرورية) فبعد أن كمل سر التوبة (أو

(١) الشماس الانجيلي من درجات الخدمة الكنسية وهو أقل من الكاهن ويساعده في إكمال المراسيم الدينية، وكلمة شماس (سريانية) تعني الخادم والمساعد (ج: شمامسة).

الإعتراف)[1]، قبل بتقوى مثالية القربان الأقدس[2]، والمشحة الأخيرة[3].

واستعد استعداداً حسناً للموت مكرراً أفعال الإيمان والرجاء والمحبة، معترفاً بأن في المسيح طبيعتين واقنوماً واحداً، ومستغيثاً بمريم العذراء الجزيلة القداسة وعندئذ أسلم الروح.

ولقد ملأ نفسي بموته الهادي تعزية ومثالاً صالحاً لكل المحيطين به الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي والتزموا به.

لقد أسف النساطرة الآخرون في أول الأمر تحول هذا الشماس إلى المذهب الكاثوليكي، لما كان يتمتع به من مكانة إجتماعية بينهم، لكنهم عندما رأوا إعتنائي به وبعائلته واهتمامي بكل الكاثوليك، شرعوا يتقربون قليلاً فقليلاً مني، ولا سيما الأسر البارزة بينهم.

وفي هذه الأحوال إنتهز الأرمن (الأرثوذكس)[4]، الفرصة فاحتلوا كنيسة الكلدان كما سأبين ذلك في آخر هذا الكتاب[5].

---

(١) سر التوبة أو الإعتراف من أسرار الكنيسة السبعة وبه يعبر المؤمن المسيحي عن توبته وعودته إلى الله ويتم ذلك عن طريق الكاهن المخول.

(٢) من أسرار الكنيسة السبعة ويشير إلى جسد ودم المسيح (متى ٢٦: ٢٦-٣٠).

(٣) هو دهن المريض المدنف بزيت مبارك وإعداده لملاقاة ربه،

(٤) نسبهم في النص إلى ديوسقورس بطريرك الاسكندرية (٤٤٤-٤٥١م) الذي تبع مذهب أوطاخي فعزله مجمع خليقدونية المسكوني (المنجد)

(٥) الاب بطرس حداد: كنائس بغداد ودياراتها، بغداد - ١٩٩٤، ص ١٤١ وما يليها.

ثورات العرب:

أراد المؤمنون القدماء منهم والجدد أن أمثل أمام الوالي لأحصل منه على امتياز قبولهم بصورة رسمية وعلنية لحضور المراسيم الدينية في ديرنا، وقد فعلوا ذلك لإحساسهم بأن الباشا كان يتمنى أن يراني، لكني لم أرد أن أذهب من دون أن أدعى، فانتظرت الفرصة.

لكن هذه الفرصة تبخرت بسبب استعداد الوالي لحملة كان يحاول بها أن يسحق مختلف أحزاب الأعراب الذين كانوا تحت قيادة رؤسائهم (أو كما يقال لهم أمراء)، وكانوا يعيثون فساداً في حدود ولايته، وهم:

- أولهم: يقال لجماعته المنتفك .Muntefich
- الثاني: السعدون.
- الثالث: بني لام.

وإذ لم يكن عنده العدد الكافي من الرجال للهجوم في وقت واحد، فكر بأن يجذب أحدهم في الأقل إلى جانبه، فنشر دعاية مفادها أن الوالي مزمع أن يهجم على الباشوات الأكراد، ولذلك دعا العرب للإشتراك بهذه الحملة، ولما كان أمير المنتفك شخصاً مغامراً فقد أرسل في الحال إلى بغداد ألفي عربياً من الفرسان، فاستقبلوهم في المدينة استقبالاً حسناً وأنزلوهم في خان السراي موزعين على أقسام، وفي الليل نزعوا عنهم أسلحتهم وحرموهم من خيولهم ووضعوهم تحت الحراسة، وقبل أن يتهيأ لأهل المنتفك الوقت الكافي لجمع قواهم حمل عليهم بسرعة فائقة وحاصرهم فكسرهم.

ثم انتقل إلى القبيلتين الأخريتين فلم يحصل على النتائج نفسها لكنه عاد إلى بغداد وهو يحمل الغنائم من المنتفك.

وكانت الغنائم عبارة عن أعداد من الخيول والجمال والثيران والأغنام.

وكانت بالألوف وقد قادوها إلى مواقع قريبة من المدينة، ومن جراء ذلك نتجت حروب دموية مع الزمن سأتكلم عنها لاحقاً.

حادث مروع:

كان شهر تشرين الأول (١٧٣٨) عندما عاد إلى بغداد من حلب الأب عمانوئيل ومعه الأخ الراهب فرانكو وبقيا هنا إلى مطلع شهر آذار سنة ١٧٣٩ إذ دعي الأول إلى روما لحضور جلسات المجمع الرهباني الكرملي.

وبعد بضعة أشهر حضر إلى بغداد الأب فيديل[١] ليبقى معي وتبعه الأب كارلو رايموندو الذي عين نائباً في هذا البيت أي ديرنا.

كانت قد مضت أيام قليلة منذ وصول الأب المذكور، وكنا بانتظار الضيف الآخر عندما حدث حادث مروع في بغداد أقلق جدياً الجماعة المسيحية كلها.

وملخص الحادث أن أخين مسيحيين كانا نائمين في شرفة مفتوحة في بيتهما فنشب بينهما جدال لا أعرف لأي سبب كان، وتطور الجدال إلى

---

(١) وكان يعرف في بغداد بالأب أمين (وهو ترجمة اسمه إلى العربية) كما في رسالة الإحتجاج للشماس كوركيس بن زكريا الصائغ الموصلي، تحقيق الأب بطرس حداد، بغداد ٢٠٠٩، ص ٥٩.

قتال بحيث أن الأخ الأكبر جرح أخاه بسكين جرحاً مميتاً، فأسرعت أمهما المنكوبة فرمت بنفسها بينهما لتمنع تطور القتال لئلا يموت الابن الجريح، لكنها لم تستطع بتوسلاتها أن توقف اندفاع القاتل ورمت بنفسها لتقي ابنها من طعنات أخيه، لكن هذا الابن كان قد فقد وعيه وإنسانيته فوجه طعناته إلى جسد أمه وتركها مطروحة فوق جسد الأخ القتيل.

فهرع إلى البيت الجيران المسلمون فأوقفوا الأخ القاتل وقادوه إلى السلطة الرسمية التي رمته في السجن.

وقد أخبروني بهذا الحادث البشع فهرعت لمساعدة الأم فرأيتها قد جرحت جرحاً بليغاً مميتاً في عظم كتفها الأيسر تحت الوريد الكتفي.

وفي تلك اللحظة لم استطع أن أفعل شيئاً سوى أن أضمد الجرح وطلبت منها أن تغفر لابنها على الرغم من أنه لا يستحق الغفران، ولكن فلتفعل ذلك حباً بالمسيح، ولم استطع اقناعها.

ثم جاء الطبيب الجراح فسلمتها بين يديه وذهبت مسرعاً إلى الحبس ونفحت الحارس بقطعة زكين Zecchino فسمح لي بأن أقابل الشاب الشقي وأنا أرثي لحاله فرأيته مستعداً للموت منتظراً المصير الذي يستحقه لقاء فعله الأثيم.

كان على وشك أن يمثل بين يدي الباشا لينال عقابه، لكن الباشا كان متأهباً في ذلك اليوم للمسير على رأس جيشه في حملته ضد الشيخ العربي (السعدون) الذي ذكرته آنفاً، ولذلك لم يرد إصدار حكم بالموت وهو في طريقه للقتال بحسب الإعتقاد السائد في مثل هذه الأحوال، بأن ذلك ليس بالفأل الحسن، ولذلك أمر بأن يحضر الشاب الجاني والأم الجريحة أمام

القاضي، وأن يتقرر مصير الشاب بحسب حكم الوالدة، وإذ علمت بهذا القرار وأن الشاب الجاني قد أعيد إلى السجن، رجعت لزيارة والدته المجروحة ورجوتها أن تطلب الحياة لابنها في حال أن جرحها لا يندمل ويقضي على حياتها إذ لا يجوز أن تباد العائلة كلها في يوم واحد.

وبعد نقاش طويل ورجاء كثير ووعد من قبلي بأن أبقى إلى جانبها وأعالجها إلى آخر لحظة، إستطعت أن أقنعها كي تغفر لابنها صنيعه، وأن تبقي على حياته إذا عاجلها الموت.

وعملاً بالعادة المتبعة في البلد فقد جرى تسجيل هذا القرار في كتاب رسمي من قبل القاضي، وعندئذ أطلق سراح الشاب لكنه نظراً لفعله الأثيم لم يستطع أن يقابل الناس، فذهب واختبأ في بيت عمه، وهناك قدم توبة نصوحة إلى الله تحت إرشادي، إذ جعلته يقف شهرين أيام الأعياد خارج باب الكنيسة راكعاً وبيده شمعة ويطلب صلاة المؤمنين الذين كانوا يأتون لحضور المراسيم الدينية، وبعد ذلك إعترف اعترافاً لائقاً ومنحته الحلة وأجلت تقدمه من تناول القربان شهراً آخر، إذ أردت منه أن يقوم بأفعال توبوية أخرى.

وبعد ذلك طلب مني أن يهجر المدينة بمحض إرادته، إذ كان يشعر بأنه لم يعد يطيق العيش فيها، فسمحت له، فبقي خمس سنين بعيداً عن بغداد..

حملات أحمد باشا:

في هذه الأثناء رحل أحمد باشا على رأس جيش عظيم قوامه مئة ألف مقاتل باتجا البصرة، وصامت نساء القصر الباقيات في بغداد ثلاثة أيام وثلاث ليال مستمرة من أجل نجاح حملته، وأصيبت أكبرهن سناً في آخر

اليوم الثالث بحمى عالية كان سببها التهاب في الحلق كان يهددها بالإختناق، وما كان يدعها أن تبتلع شيئا ولا حتى قطرات الماء.

عندئذ دعاني المتسلم، وهو نائب الحاكم[1]، فطلب مني أن اهتم بتلك السيدة فهي عزيزة على الباشا، وحياتي متوقفة على ذلك.

وأضاف بأن عليّ أن أعالجها دون أن أراها، ولم استطع أن أتمالك نفسي عن الضحك إزاء شرط أحمق كهذا، فاستغرب المتسلم، إذ رآني أضحك وسألني بلهجة قاسية: "ما الذي يضحكك"؟

فاجبته بصراحة: "إني لا أستطيع أن أضع نفسي في مثل هذا المأزق فأداوي عمياوي! فمثل ذلك ليس فطناً ولا صحيحاً بل يكون علاجاً خاطئاً ومضراً، ولا يقوم بمثل ذلك إلا طبيب معتوه"!.

فأردف الرجل: "إن الدخول إلى حرم الباشا، أي حيث تكون زوجاته ونساء الأسرة هو من صلاحيات الوالي وحده".

وإذ أنه حالياً غائب فعلي أن اكتفي بمعالجة السيدة عن بعد بوساطة عرض الحال تقدمه إحدى النساء الخبيرات بالعلاج (الحكيمة).

فقلت له: "إني لم أتعود على العلاج إعتماداً على وصف شخص آخر ولا سيما في مثل هذا البلد حيث لا أعرف كل الظروف المؤدية إلى المرض، وحيث بالكاد أفهم اللغة، ولذلك فمن الضروري أن أفحص نبض المريض، وقد استشير النساء في أمور أخرى"، فأسقط الرجل في يده، وبدأ يعض شفتيه ولم يجبني.

---

(١) المتسلم وظيفة في الولاية يعينه الوالي نفسه كوكيل أو نائب له.

وأضفت قائلاً: "يا سيدي إن كان هناك في الحرم امرأة خبيرة بالعلاج كما ذكرت فلماذا لا تعالجها من دون أن تعرض حياتي وحياتك للخطر...".

ويظهر أن كلامي أقنع بعض الشيء المتسلم فدعا الآغا[1] حامل المفاتيح وثمانية خصيان وقال لهم: "إذهبوا واطلبوا الأذن من سيدات الحرم بأن يدخل الحكيم مرة واحدة لا غير عند المريضة".

أما أنا فعدت إلى البيت منتظراً الجواب ولم أشك بأنهم سيستدعوني بالتأكيد (فأحضرت العقاقير اللازمة) ثم دعيت إلى السراي ورافقني الرجال الثمانية إلى حرم القصر يتقدمهم الآغا حامل المفاتيح.

ووقف عند الباب، فدخلت حتى باب الغرفة حيث كانت المريضة، فرفع رئيس أولئك الخدام ستاراً جميل الصنع كان يغطي الباب من أعلاه إلى الأرض.

وأوعز إلي أن أنحني فأخذ يدي وأدخلها وراء الستار لأجس نبض السيدة المسجاة عند الباب.

فشعرت بأن النبض قوي جداً، فسألت كيف هو حال بشرتها؟ فقالوا: إنها ملتهبة، فأمرت بأن تفصد في ذراعها وأن يحملوا إلي الدم لأراه (ويستمر في شرح طويل ما عمله).

كانوا قد عينوا لي مكاناً حيث أبقى كل النهار، أما في الليل ففي مكان

---

(١) الآغا (تركية) تعني السيد أو الموظف وقد يكون عسكرياً أو مدنياً او مستخدماً وهنا هو المختص بحمل مفاتيح السراي.

آخر خارج الحرم، ومن وقت إلى آخر كانت تأتيني السيدة التي قيل عنها إنها (الحكيمة) وإنها تفهم في أمور الطب فتصف لي حال المريضة.

كنت جالساً في مكاني وأمامي كتابان ضخمان الواحد تأليف رينريو Rinerio والآخر تأليف زاكوتي Zacchutti البرتغالي أطالع فيهما باهتمام حال هذه السيدة... وعند غروب الشمس بلغوني بأن حالها قد تحسنت وأنهم قدموا لها حساءً من الرز.. بعد ذلك سمحوا لي بالعودة إلى بيتنا مع وجوب زيارتي للقصر ثلاث مرات في اليوم للسؤال عن حال السيدة...

كانت هذه السيدة في قمة مرضها قد نذرت على نفسها إن كان الله يبعد عنها شبح الموت ويمنحها الشفاء من هذا المرض فإنها ستعتق لوجه النبي أربع جاريات كرجيات.

وما أن تحسنت حالها حتى أرادت أن تفي نذرها، فاختارت أربع آنسات من بين جواريها، وقدمت لكل واحدة منهن ثلاثة أكياس من المال على سبيل الدوطة[1]، وارسلتهن ليقفن أمام باب أحد الجوامع الذي يقع مقابل السراي[2] لكي يمر هناك من له رغبة بالزواج من إحداهن.

وفي ذلك الصباح نفسه أُرسل أغا الخصيان إلى بيتنا ليشكرني باسم السيدة للاهتمام الذي أبديته نحوها، وليطلب مني أيضاً أن أخبره عن موعد زيارتي وما أطلب لقاء خدماتي.

---

(١) الدوطة أو المنيني ما تقدمه الفتاة لعريسها، أنظر: الأب أنستاس الكرملي: الدوطة أو المنيني عند العرب وأهل الشرق، مجلة المشرق ٨ (١٩٠٥) ص ٨٤٠-٨٤٣.

(٢) وهو جامع حسن باشا الواقع أمام دار الحكومة القديمة، أنظر: محمود شكري الآلوسي: تاريخ مساجد بغداد وآثارها، تهذيب محمد بهجة الأثري، بغداد ١٣٤٦ هـ، ص ٣١.

فأنا باركت له لاستعادة السيدة صحتها، وشكرته على لطفه الذي أبداه نحوي، أما بخصوص أتعابي فقلت له: "يكفيني شرفاً بأني قدمت هذه الخدمة وأن السيدة نالت الشفاء على يدي".

لكن الرجل لم يعجبه جوابي واعتبره ترفعاً، فقال: "إنك لا تعرف أن تستغل الفرص التي وضعها قدرك أمامك! وإنك لتكبرك تظهر نفسك بأنك لا تهتم بذلك".

"وبالرغم من أنك إنسان تعيس وفقير لكنك متكبر، وهذا يكفي"!

لقد عاملني معاملة إنسان لا قيمة له ولا كرامة، وأضاف: أن السيدة إذا بلغها هذا الرأي فسوف تتأسف جداً لموقفك.

وإذ شعرت بأن الرجل يتكلم جدياً أردفت بأني رجل أختار الفقر طواعية وأني لا أطلب من الله يومياً إلا خبزنا كفاف يومنا، فأنا لا زوج لي ولا أولاد لأقوم بأودهم.

ولا أعلم إن كان قد اقتنع بكلامي أو لم يفهمه، لكنه في الأخير أظهر نوعاً من الموافقة على ما قلت ومضى مسروراً إلى السراي.

والذي كان في نيتي أن أطلب من السيدة عند عودة الوالي الإذن بفتح كنيستي للعموم.

هدية غريبة:

جرت هذه الزيارة ـ أي زيارة الآغا ـ قبل منتصف النهار بقليل، وما مرت ساعتان بعد هذا الحديث حتى رأيت الآغا عائداً وكله ابتهاج قائلاً

بأن السيدة تدعوني إلى الحرم.

وكان وجهه المرح وطريقة كلامه اللطيفة معي أوحيا إلي بأن أطلب من السيدة إذا فاتحتني ما كان يدور في خلدي وكان ذلك أقصى مناي.

ذهبت مع الرجل، ولما دخلت أوقفني عند الباب الذي كنت أقف أمامه عادة في زياراتي السابقة، فخرجت إلي من عند السيدة تلك المرآة التي عرفت بأنها تفهم بالأمور الطبية وأمامها ثلاث آنسات مكشوفات الوجوه، وإذ نظرت إلى البستهن فإن السيدة المتعافية لم تكن إحداهن، فلم أستطع أن أحزر غاية هذا الاستعراض.

لكن (الحكيمة) قالت لي: "أيها الأب، إن السيدة عندما عرفت بأن لا زوج لك ولا أولاد إذ لا تستطيع أن تقوم بأودهم، فإنها تقدم لك إحدى الإماء حسب اختيارك، وتتعهد أن تجري عليك ما يكفي لمعيشتك عيشة رضية".

فوقفت مبهوتاً أمام هذا العرض الغريب، وعلمت في الحال أن هناك سوء فهم في الحديث الذي جرى بيني وبين الآغا صباح ذلك اليوم، وأنه نقل إلى سيدات الحرم الكلام على طريقته، وكنت أسمع وشوشة وراء الباب الذي خرجت منه الجاريات ولا أرى وجوهاً، وكن يراقبن أي واحدة منهن يا ترى سيقع عليها اختياري.

وأمام هذا الموقف المحرج أعلنت بأني راهب وقد اخترت حياة العزوبة بمحض إرادتي وأني أشكر الله على ذلك.

كما أشكر السيدة على هديتها لكني أرجوها أن تعذرني عن الاسترسال في هذا الموضوع، وإن لم يكن عندها ما تأمرني فلتسمح لي بالإنصراف،

وخرجت من هناك وأنا مضطرب إضطراباً لا يصدق!.

حملة على السعدون:

في تلك الأيام كان الوالي قد وصل إلى البصرة على رأس جيشه، وخرج مع المقاتلين من تلك المدينة لمحاربة السعدون فخيم في الصحراء، وإذا بالأعراب (وكان عددهم يفوق المئة والخمسين ألفاً) يكسرون السدود التي على نهر الفرات، فأغرقوا البادية كلها حيث كانت خيام الباشا، مما اضطر الطرفين إلى التفاهم فعقدوا معاهدة السلام بينهما، ولم يفقدوا نفوساً إلا القليل، بينما فقدوا الكثير من آلآت الحرب، وعاد الوالي إلى بغداد لا غالباً ولا مغلوباً.

لا شك في أن الوالي اطلع على ما جرى للسيدة على يدي في غيابه حالما وصل إلى بغداد.

ولذلك ففي اليوم الثالث من وصوله دعيت من قبل الكهية[1] وهو نسيبه وأمرني أن أحضر صباح اليوم التالي عنده ليدخلني أمام الوالي، وحذرني من الكلام في أمور السياسة في المدينة، حتى ولو سألني الوالي عن ذلك، وأضاف: لا تقل كلمة إن لم تكن مدحاً بشخصه!.

كما قال لي أيضاً: بإمكانك أن تخبر الوالي بأن اسمه يذكر بالإعجاب في أوربا كلها.

---

(١) الكهية تحريف كتخرا أو كتخردا الفارسية (= كد تعني بيت، وخدا تعني رب وصاحب) ويراد به المعتمد أو المعاون، وفي زمن الرحلة أطلق على مساعد الوالي ونائبه فهو بمثابة الوزير في الولاية.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى السراي وأدخلت أمامه، كان العاهل واقفاً في صدر الديوان.

فقربني إليه ومد إلي ذراعه لكي أفحص نبضه، وانحنيت لأقبل خاتمه لكنه لم يسمح لي بذلك.

فحصت نبضه فسألني: كيف هو؟.

فأجبت: "إنك بحال جيدة جداً، وإني لأعجب حقاً كيف أن رجلاً يتمتع بالشجاعة والقوة بحيث يغلب أسداً ويكون نبضه هادئاً ولطيفاً".

فأمرني أن أشرح ما قلت.

صراع الوالي مع الأسد:

عندئذ قلت له بأني سمعت بما حدث قبل سبع سنين عندما قاد إلى البرية خارج المدينة أسداً عظيماً حجماً وقوة مع ستة أسود آخرين كانوا تحت الحراسة ومقيدين جيداً بالسلاسل أمام السراي.

ثم ترك الأسد الكبير وأمر حراسه بعدم الإقتراب منه، ومن يقترب فسوف يعاقب بالموت.

وركض وهو فوق فرس عربية أصيلة وبيده رمح ليطعن الأسد فجرحه، لكن الأسد على الرغم من جرحه نهض وهجم على الفرس التي انحنت لتتخلص من ضربات الأسد فسقطت على الأرض وبسقوطها سقط الوالي أيضاً، لكن الفرس أدبرت ورفست بحافريها الأسد فأعطت المجال للباشا الشجاع ليلتقط حربته بيده، فنهض على قدميه وبطعنة نجلاء قتل

الحيوان دون أن يستطيع ـ الأسد ـ أن يلحق به أذى[1].

فسألني: كيف اطلعت على هذه المغامرة؟

فأجبت: سيدي إن هذا الأمر معروف عند الجميع، وقد سمعت الكثيرين يروونه ويذكرونه بإعجاب في كل الأماكن.

ورأيت كيف كان الباشا ينظر إليّ وأنا أتكلم أمامه بصراحة منذ الوهلة الأولى، لا بل كنت الوحيد ـ كما كرر ذلك عليّ لاحقاً ـ بأني أتكلم أمامه بلا خوف.

طبيب الوالي:

ثم سألني إن كنت أقبل بمحض رضاي أن أخدمه كطبيب، وأنه سوف يرضيني، فقلت له: "إن كنت تجدني أهلاً لهذه الخدمة فأنا بكل طيب خاطر أسخرها لبقاء شخصك الكريم على الرغم من أني خال من العلم ولا استحق كل هذه الشرف".

عندئذ أمر أن تخلع عليّ عباءة[2]، وهي لباس شرف يتميز به كبار الموظفين الأتراك، وأن آخذ مبلغاً من المال كان معداً خارج الديوان موضوعاً على وسادة، فشكرته قلبياً عن الأمرين، وطلبت منه أن يعفيني

(١) يذكر السويدي: حديقة الزوراء ص ٣٣٠ وما بعدها هذه الحادثة ويعين مكان الصيد قرب هور عقرقوف، ويؤيده الكركوكلي: دوحة الوزراء ص ٢٨ بينما يقول صاحبنا إن الأسود كانت مقيدة بالحديد أمام السراي وأخرجها إلى البرية، ويذكر هذه الحادثة أيضاً نيبور: رحلة نيبور إلى العراق: ص ٤٢-٤٣.

(٢) ذكرها الرحالة بلفظها العربي .Abba

عن نبول تلك الخلعة الثمينة إذ لا يجوز لي أن ألبس مثل تلك العباءة التي لا تتناسب وحالي الرهبانية التي اعتنقتها، أما المال فلا أطلب إلا ما أحتاج إليه، إذ لا يجوز لي أن أحصل على المال وأتصرف به حسب مرامي، بل عند الحاجة وباطلاع رؤسائي.

كان الوالي مطلعاً على هذه الأمور ويعرفها جيداً، ولهذا أظهر تفهمه ورضاه على جوابي، ولهذا ودعني بلطف وأذن لي بالإنصراف فعدت إلى مسكني.

فلما ذهبت دعا الوالي المتسلم ليستشيره أي موقف يتخذ تجاهي لكي يعرف الجميع بأني صرت من أصحابه، وقد أراد أن يميزني من بين كل الأوربيين الموجودين آنذاك في بغداد.

فجاء المتسلم العجوز ليستشيرني إلى أي حد أحب أن يتصرف الباشا معي؟

فقلت له: إن أمكن أن تخاط لي عباءة من قماش بني اللون أستطيع أن ألبسها فوق الزي الرهباني الخاص بنا[1].

وأن توضع لخدمتي في رواحي ومجيئي إلى القصر فرس عربية أصيلة يقودها اثنان بوظيفة جوخدار يسيران أمامي.

وتباحث الباشا بالأمر مع المتسلم، وبعد يومين دعيت إلى القصر لتخلع عليّ العباءة التي تم إعدادها، فأدخلوني إلى الديوان حيث كان بعض

(١) لأن زي الرهبان الكرمليين كان ولا يزال بني اللون.

كبار الحاشية حاضرين، فأجلسني بينهم وأعلن عن إرادته بأن يعاملني الجميع بصفتي طبيبه الخاص.

وأمرني أن أحضر إلى السراي يومياً صباحاً ومساء في ساعة معينة راكباً الفرس المعدة منذ اليوم لتعيدني إلى مقري وستكون في خدمتي، وتعهد بكل الأمور الأخرى الضرورية.

فقمت وألقيت كلمة تليق بالمقام معبراً عن شكري، وأردت أن أضيف بالأكثر أن يعذرني الحضار عن الدعاية لنفسي، فأشير علي بما معناه السكوت فأطعت ودون أن أزيد في الكلام ذهبت إلى أموري الخاصة.

وقبل خروجي قمت بما يجب عليّ من آيات الاحترام للباشا ولكل أولئك الرجال العظماء الذين بادلوني التحيات بمثل ما فعلت.

خرجت من الديوان فوجدت في الحوش الفرس المطهمة مع ستة جوخدارية حاملين العصي بأيديهم كانوا بانتظاري هناك.

فلما رأوني خارجاً تقدموا مني وانحنوا لي وقام كل واحد منهم بواجبه المعين له، فالأول ساعدني لأركب الفرس.

وتقدم اثنان منهما أمامي، وإثنان إلى جانبي، وإثنان ورائي حسب التعليمات التي أعطيت لهم في القصر.

وطافوا بي في الأسواق والدروب الرئيسة في بغداد حتى أوصلوني في آخر المطاف إلى سكني.

أما الذي شعرت به في هذه المسيرة، فقد تراءى لي أن جميع المسيحيين جعلوا مني أضحوكة، وأما المسلمين إذ رأوا هذا الإكرام نحوي من قبل

ملكهم الجديد فقد أبغضوني ولو أنهم بالظاهر قاموا بالإنحناءات التكريمية المعتادة.

أما في الواقع الذي اختبرته لاحقاً فإن ذلك الطواف طاب للمسيحيين ولم يعودوا يرضون بأن أذهب في أيام الأعياد فأقيم المراسيم الدينية في بيوتهم، بل شرعوا يأتون إلى كنيستنا ولم يضاددهم أحد بعد ذلك.

أشير علي بعد ذلك بأن الواجب يحتم علي أن أقوم بزيارات لأكابر البلدة، فاهتميت بأن لا أهمل شيئاً من المراسيم المحلية السائدة.

فبدأت بالكمركي الكبير Gran doganiere أي المتسلم وهو صديق لي كان يبلغني بالتعليمات الموجهة من الباشا يأمره فيها أن يهتم بتجهيزي بكل ما احتاجه لمعيشتي شخصياً ولمن يكون معي أو في خدمتي.

منذ ذلك الحين زادت أتعابي، وكثرت مراجعات العلاج التي كنت مجبوراً على أن أقوم بها.

ولكن بعون الله تعالى أكملت كل شيء بخير، وبذلك زادت الثقة بي عندما نال الشفاء كثيرون بأدوية بسيطة وعادية من أمراض ما كنت أعرفها سابقاً.

وكان الملك يستورد سنوياً على حسابه من حلب صناديق مليئة بأنواع الأدوية يبلغ ثمنها مئات من السكودو، وكنت مخولاً بأن اختار منها لفائدة الجميع؛ لأن هذا ما كان يريده بالضبط.

ولا أريد أن أطيل الكلام وأثقل على القراء ذاكراً كل ما فعلت من أجل البغداديين في مدة أربعة أعوام، إذ ليس فيها ما يجذب رغبتهم

للإطلاع، فإن حدث ما يفيد القاريء فسأتكلم عنه لاحقاً... وعليّ الآن أن أعود إلى الموضوع الذي وعدت القراء بالكلام عنه أي حصار طهمازخان...

تصرفات نادر شاه:

كان ـ نادر شاه ـ قد استقبل السفير التركي استقبالاً فخماً، وأعاده إلى السلطان محملاً بأثمن الهدايا، وحاول أن ينشر في وسط الجيش دعاية على أمل أن تصل أصداء هذه الدعاية إلى داخل المدينة المحاصرة (قندهار)، ومفادها أن السلطان العثماني قد اعترف به ملكاً صفوياً شرعياً على فارس، لا بل اعترفت به الدول الأجنبية كلها، فلو اعترف به الأفغان أيضاً لرفع الحصار حالاً عن المدينة، لا بل لأفاض عليها العز والامتيازات ولعظم اسمهم ومدح شجاعتهم.

ويعكس ذلك سيجلب مزيداً من المحاربين ليدمر مدينتهم ويقضي بحد السيف على سكانها كلهم.

لكن الأفغان رفضوا في أول الأمر الاتفاق معه على السلام ثم طابت لهم هذه الوعود فقبلوا... على شرط أن يحتفظوا بالحصن والقلعة وأن لا يعين لإدارة المدينة إلا من أبنائها ولا سيما من أولئك الشجعان الذين دافعوا عنها... فوافق الطرفان على ذلك.

لم يكن نادر شاه يترك فرصة لا يستغلها لتحقيق مخططاته، وقبل أن يستقبل الموفدين (الأفغان) في مركزه أراد أن يجري تبادل الرهائن، وإذ أبدى فرحه من أجل سلامته أن يأخذ أولئك الأشخاص القادمين للتوقيع على بنود الإتفاقية كرهائن، فقد قال إنه يضع بين أيديهم ابن عمه لطف

علي كرهينة مع كل مرافقيه، وظن الأفغان بأن ذلك هو تقديراً لهم لذلك سمحوا أن يدخل عندهم إلى المدينة أي عدد يرغبون، لكن هذا - أي نادر شاه - إكتفى بعدد قليل لكنه اختار الرجال المتمرسين في القتال، وكانت التعليمات الصادرة إلى لطف علي أن يجعل مسيرته بطيئة جداً وأن يسيطر على الباب الذي يدخل منه، وأن يقف موقف المدافع منتظراً وصول الدعم من الجيش الذي يتبعه في مسيرته... وأن لا تنفصل القوة الراكبة على الخيل... وفي ساعة معينة أمر بقطع رؤوس كل الأفغان المهمين الذين كانوا عنده كرهائن، وأوعز إلى قواته بالسير نحو المدينة التي أجرى فيها مجزرة رهيبة بين المواطنين التعساء، فخرب بيوتهم وهدم المدينة والحصن....

كان هذا عملاً خيانياً عظيماً.

وأعد العدة للهجوم على بلاد المغول، وقبل أن يبدأ بهذه الحملة الجديدة بعث خبراً إلى ابنه الذي كان يحكم أصفهان وقد عهد إليه السهر على حياة شاه طهماسب التعيس أمره أن يقتله في الحال وأن يذيع خبر موته لكي يعلم الجميع أن الأسرة الصفوية في بلاد فارس قد انقرضت.

فهم الابن حاكم أصفهان الطموح فكرة أبيه الذي كان يحتفظ بالملك مع اثنتي عشرة سيدة في حرمه، فأحضر كل أبنائه الذين كانوا في السراي مع النساء المذكورات وبحضور الملك التعيس وطلب منه أن يقسم أمام الجميع أن لا أولاد له غير هؤلاء.

فلما أقسم قام بقتلهم جميعاً، وأكمل مجزرته الرهيبة بقتله الملك الشرعي من السلالة الصفوية، واحتفظ بالنساء في السراي عملاً بتعليمات أبيه.

بعد هذه الأحداث الرهيبة إتخذ نادر شاه لقباً جديداً هو شاهنشاه أي ملك الملوك وفرض على الجميع أن يخاطبوه به.

نادر شاه والدين:

أظهر نادر شاه لامبالاة بخصوص الدين لكي يستقطب الجميع من أي بلد أو ديانة كانوا لخدمته.

ودعا علماء سائر الأديان فجمعهم وطلب منهم أن يترجموا كتبهم إلى الفارسية، قائلاً وموصياً إياهم بأنه سيختار الديانة التي ستكون الأفضل في نظره، أو أن يجعل من كل الأديان ديناً واحداً على طريقته، ويكون هو المشرع لهذا الدين.

- فتحمل الملالي الفرس تعب ترجمة القرآن من العربية إلى الفارسية.
- وانكب علماء اليهود على ترجمة العهد القديم.
- وكلف الأرمن ترجمة أعمال الرسل[١] والرسائل العامة[٢] والرؤيا[٣].
- وأخيراً وقع على المرسلين الكاثوليك واجب ترجمة الأناجيل الأربعة.

---

(١) كتاب يصف بدء الرسالة المسيحية وتأسيس الكنائس الأولى، ونجده في العهد الجديد بعد الأناجيل مباشرة.

(٢) هناك رسائل كتبها القديس بولس موجهة إلى جهات معينة (روما، أفسس، وملاطية..) وهناك رسائل عامة أي للجميع دون تخصيص (رسالة مار بطرس، مار يعقوب، مار يوحنا... الخ).

(٣) إنه السفر الأخير من العهد الجديد كتبه القديس يوحنا.

وأصدر بهذا المعنى قراراً رسمياً في أصفهان وأمر أن يعكف هؤلاء الأشخاص على العمل في قصر الخان، واستغرق العمل سنة كاملة لإتمامه على أفضل صورة.

وكان الذين ترجموا الأناجيل المقدسة المونسنيور فيليبوماريا[1] Filippo Maria أسقف أصفهان والأب أوربانو للقديس ايليا النائب العام للرهبنة في تلك المملكة وقد أمضى هناك أربعين سنة...

وساعده في العمل الأب تومازو اكوينو وكلهم من رهبانيتنا الكرملية، وهذا الأخير توفاه الله في المدة التي كانوا يشتغلون فيها بالترجمة.

فلما أكملوا عملهم طلبوا مقابلة الملك، فتم تعيين المكان واليوم الذي سيستقبلهم فيه وكان في الحدائق الملكية.

وكانت تعليمات القصر لموظفيه واضحة بأن يعاملوا المترجمين باحترام ولطف لأنهم ضيوف الشاه...، لأن المعاملة السابقة لم تكن لائقة حتى أن القوناقجي باشي طلب المعذرة لإهماله لهم في السابق، فإذا سألهم الملك كيف كانت معاملتهم فالرجاء ألا يخبروه بما جرى لهم وسوء المعاملة التي بدرت عنه، فوعدوه خيراً.

وفي اليوم المعين جاءوا للمقابلة كلهم سوية، فأخذوهم إلى باب الحديقة الملكية وأوقفوهم هناك، فرأوا منظراً مرعباً، إذ كان بعض الناس من مختلف الطبقات مطوقين في أعناقهم يدخلون أمام الملك فيخنقون وبعد قليل يجرونهم بالسلاسل إلى الخارج لترمى جثثهم للوحوش، واستمر هذا المنظر نحو ساعة وتم خنق ثمانية عشر شخصاً خلال هذه الساعة.

---

(١) أنظر الملحق الأول.

إرتعش المترجمون خوفاً من هذا المنظر وظنوا أن مصيرهم سيكون كأولئك...

أخيرا أدخلوا ليمثلوا أمام الملك فرحب بهم بصوت هاديء، وسألهم إن كان كل واحد منهم قد انتهى من ترجمة ما عهد إليه، فأجابوا بنعم وأنهم ينتظرون شرف تقديمها إليه.

فدفعوا ما عندهم إلى الموظفين، فتحولت من يد إلى أخرى حتى استلمها هو فلم ينظر إليها بل اكتفى بالسؤال إن كانوا ساكنين في مكان مريح.

فلما قالوا نعم صرفهم قائلاً بأنه سيطلبهم متى ما يشاء.

وأمر أن يدفع لهم مائة تومان تقسم بينهم: فجرى تقسيم المبلغ نسبياً على عدد المشتغلين في الترجمة: نحن استلمنا ١٥ توماناً لأننا كنا ثلاثة؟ والعبرانيون (اليهود) إذ كانوا أربعة تسلموا عشرين توماناً، والأرمن إذ كانوا خمسة حصلوا على ٢٥ توماناً، أما الملالي فأخذوا أربعين توماناً لأنهم كانوا ثمانية... ولا أعلم ماذا كان مصير تلك الكتب المترجمة.

دسائس البلاط العثماني:

لنعد الآن إلى موضوعنا ونبين السبب الحقيقي للاختلاف الجديد بين الأتراك والفرس، ويترتب عليّ أن أعود إلى الحديث عن إقامتي في بغداد على عهد أحمد باشا والي بغداد، الذي كنت في خدمته بصفة طبيب، عندما أرسل الشاهنشاه أي ملك فارس سفارة إلى السلطان الأعظم، لأن هذا (أي السلطان) كما ذكرت آنفاً حاول أكثر من مرة التخلص من أحمد باشا

ليس لأنه كان يجهل أفضاله التي أداها بأمانته وشجاعته وإخلاصه في خدمته، ولكن بسبب التلميحات المتكررة من طرف خفي ضده من قبل الوزير الكبير علي.

كان عليّ هذا ابن أحد البندقيين، فاعتنق الإسلام وتوظف عند السلطان بصفة طبيب أولي، وكان علي رفيق الطفولة مع أحمد، لكن علاقتهما انقلبت إلى عداء شرس بحيث صار الواحد يسعى إلى سحق الآخر.

وإذ كان كلاهما يتمتعان بالشجاعة والنباهة والقوة والإقدام بحيث كانا يثيران إعجاب كل من يطلع على أعمالهما.

وسبب هذا العداء هو إعلان أحمد قائداً أعلى للقوات العثمانية في مكان أبيه الذي مات ـ كما نوهنا ـ موتاً طبيعياً في كرمنشاه، إذ كان سائراً على رأس جيشه لحصار همدان.

فهذا المركز المهم كان الوزير الشاب علي يتلهف لنيله، وكان والده الطبيب يشعر بمدى ألم ابنه بعد أن أسند هذا المركز إلى شخص آخر، لذلك أراد أن يوصل إليه الخبر مصحوباً بهدية غالية وهي خيمة ثمينة رائعة الصنع كانت خاصة بالسلطان، على أمل أن يخفف من وقع الخبر المرير على ابنه.

لكن أحمد إذ رأى الخيمة أعجبته وقد أصبح قائداً أعلى فطلبها من علي مستنداً إلى الصداقة القديمة لكن هذا رفض الطلب.

هذه الحادثة وغيرها أشعلت في قلب علي البغض لأحمد، فشعر أنه يريد أن يحرمه من المركز العسكري المهم ومن الخيمة أيضاً.

ولذلك بردت في قلب احمد محبته نحو علي، بحيث لما حل يوم الجمعة التالية الذي يجب فيه على كل الموظفين الرسميين الحضور حسب مراتبهم ليقوموا بتأدية السلام، فعندما تقدم علي للسلام على أحمد كان استقبال أحمد بارداً، لا بل حاول إهانته، كما أني سمعت القائد الأعلى يقول بأن حصول المرء على خيمة فاخرة وأفضل من خيمته لا يغير من الواقع شيئاً، فهو ذاك الرجل الذي لا شيء على رأسه غير الطربوش الذي لا يختلف عن غطاء رأس السائس في أسطبلي، وأراد بقوله هذا أن يقول أن حصوله على الخيمة الخاصة بالسلطان لا ترفع من أصله الحقير، فهو في آخر الأمر ابن أحد الكفار المستسلمين، بينما هو أي أحمد مسلم من ظهر مسلم أصيل.

لقد كان ذكر ذلك بصورة علنية إهانة كبيرة أثارت في نفس علي سخطاً لا يوصف، ولحاول أن ينتقم لنفسه في الحال لولا حراجة الموقف وأهمية المكان وشرف الخصم.

لذلك تظاهر بأنه لم يفهم تلك الجملة التي في الحقيقة انطبعت في قلبه، وبعد أيام طلب رخصة وعاد إلى اسطنبول حيث بدأ يخدم بظل أبيه (أي بسمعته)، ويتقدم بالخدمة فنال رضى السلطان، حتى تسنم وظيفة حامل الأختام أي الوزير الأعظم، وهو الشخص الأول بعد السلطان.

كان من موقعه السامي يتربص دائماً بحركات أحمد ولا يبعد نظره عنه، وعلم أنه لم يدفع منذ أربع سنوات الضرائب المستحقة للباب العالي، إضافة إلى رغبته وسعيه لإعلان نفسه ملكاً على بغداد ليجابهه شخصياً ويبقى دائماً أعلى منه، أرسل قبوجي باشي يحمل أمراً صريحاً أن يقطع رأسه حالاً بعد قراءة الأمر السلطاني.

لكن أحمد علم بالأمر من قبل جواسيسه المبثوثين في كل مكان، الذين

كان يغريهم بالمال، وعمل على قتل القبوجي وهو بعد في الصحراء في المكان نفسه الذي جرى فيه بأمره قتل ثمانية عشر شخصاً بالطريقة نفسها في مدة خدمتي له في بغداد.

وعندما رأى الوزير الأعظم أن مخططاته ذهبت أدراج الرياح، وأن أحمد أظهر عصيانه وأعلن نفسه ملكاً على بغداد، أقنع السلطان بأن يرسل جيشاً كبيراً لإخضاعه، وأنه مستعد أن يسير على رأسه ليسحق غرور ذلك الوالي المتمرد.

وعرف أحمد بالدسيسة الجديدة في وقت معقول، وإذ كانت بينه وبين ملك الفرس أي الشاهنشاه علاقات تفاهم سرية، فطلب منه أن يساعده للقضاء على غريمه بحيث يجرده من السلطات التي تخوله الحاق الأذى به.

وإذ كان الشاهنشاه قد استعد لإعلان الحرب على الدولة العثمانية من جديد، وكان قد أعد طنفسة ثمينة هدية لمسجد النبي، رضي أن يتوقف عن الحرب بشرط أن يتم خلع علي من منصب الصدارة العظمى ويعين مكانه محمد باشا Mamet - bassa الملقب كور وزيرا.

وإذ سقط هذا العدو القدير، فإن ملك بغداد عقد بطرقه الخاصة صداقة ودية مع ملك فارس؛ لأن هذا لم يشعر بالأمان قط إن لم يحصل على عهود من الملوك والأمراء والباشوات الذين كانوا على خلاف مع حكومة أسطنبول، ولذلك كان يحاول جذبهم إلى جانبه بلطف، مظهراً إستعداده الدائم لمد يد العون لهم.

إن الباشوات الذين انتموا إلى جانبه سراً هم: كوشك Chosc وعثمان وسليم وفتاح بك باشا الجزيرة، ومن الأفغان كان في خدمته ما ميسرات

خان Mamiscerat ونزارات خان وإبراهيم خان، وهم رجال فرسان شجعان ورؤساء قبائلهم، فكانوا يتسلمون رواتبهم منه بسخاء منقطع النظير، كذلك كان عدد من شيوخ العرب وأمراء الأكراد الذين كان يتوجه إليهم بتوجهات لطيفة بحيث بادلوه مشاعر الإحترام والتقدير.

شخصية أحمد باشا:

إستطاع أحمد باشا أن يرضي البغداديين عن طريقي العدل والرخاء، بحيث أمسوا يتحملون كل الصعوبات ويتقبلون الضيقات إكراماً له، وكان يحاول بطرقه الخاصة العجيبة أن يثير حسد الباب العالي بحيث أصبح - الباب العالي - يشعر بأنه إذا أخذ مواقف سلبية ضده فإنه سيمهد الطريق لملك الفرس، لا بل سيرافقه لحصار اسطنبول نفسها.

ومن جهة أخرى كان يجامل الشاهنشاه ويثير في نفسه أصل إعلانه عاهل الشرق الوحيد ليشبع غروره.

كان تحت تصرفه وعلى نفقته الخاصة أكثر من خمسين ألف عسكري، معظمهم من الفرسان.

وكان يهتم بانضباطهم وبتمارينهم الميدانية، ويريدهم أن يكونوا دائما على أتم الاستعداد.

ما كان يخرج للإستعراض أو للقنص أبداً إن لم يرافقه عشرة إلى اثني عشر ألف شخص، وعندما كان مثل هذا الموكب يصل إلى الريف كان يحث الرجال على ممارسة مختلف التمارين: كالسباق على الخيل بدون لجام، والرمي بالمسدسات على الهدف، والركض ورمي الجريد من على

الحصان، واستعمال الرماح بمختلف الطرق والجهات، والنزول عن الحصان والعودة إليه في أثناء السباق.

كل ذلك كان يفيد كواسطة للتسلية والتمرين بالوقت نفسه، وبهذه الطريقة كان يحول دون تسرب الكسل إلى نفوس رجاله، لأن الكسل والبطالة هما آفة الجيوش العظيمة.

كان يمرن رجاله على أنواع الأسلحة، ويحاول أن يجعل جهدهم وتعبهم أمراً محبباً وطبيعياً، ويكلل كل ذلك بالجوائز السخية التي كان يمنحها باستمرار لمن يظهر تفوقاً خاصاً في تلك التمارين، مادحاً جهدهم وشجاعتهم.

ما كان يمر يوم من أيام التمرين إلا وتقع حوادث غير متوقعة: منها لطيفة ومنها مؤلمة.

ففي إحدى المرات إذ ذهبنا معه رأيت اثنين من رجاله يسابقان الريح، هما: أمين الخزينة وآغا المفاتيح.

وفي ركضهما دارا في وقت واحد وهما على حصانيهما فاصطدما بقوة وسقطا على الأرض الفرس والفارس معاً، وبقيا كالموتى بضعة دقائق، وهرعت إليهما لاسعافهما وكلي أمل بأن أخلصهما من براثن الموت، لكن الذي حدث أني رأيت المتسابقين ينهضان من كبوتهما ويقفزان خطوتين أو ثلاث ويعودان فيمتطيان الحصانين وكأن شيئاً لم يحدث.

مثل هذه الحوادث كانت تتكرر في كل المناطق التي تكثر فيها الفئران التي كانت تحفر في الأرض حفراً هنا وهناك، وهذه الحفر في الأرض القاحلة كانت تصير بفعل الشمس الحارقة قوية بحيث أن الحصان إذا وضع

حوافره في إحداها في أثناء ركضه كان يفقد توازنه فيقفز قفزات غير موزونة ليتفادى السقوط، وبمثل هذه القفزات كان الفارس يسقط ولا سيما إن لم يكن ثابتاً على حصانه، فكان بعض الفرسان في كثير من الأحيان يتسمرون على الأرض من أثر سقوطهم أو يتأذون، فكان الملك ـ أي أحمد باشا ـ ينفق من جيبه من أجل علاجهم ويلاطفهم ويظهر لهم أسفه لما حدث.

وخلاصة القول إنه كان محبوباً من شعبه ومقدراً كل التقدير، بحيث أنه في وقت قصير تحول في نظر الباب العالي إلى شخص مخيف، بينما كان يتسامى بالعظمة والبهاء.

الوالي والعشائر العربية:

في مطلع شهر تموز ١٧٣٨ إضطر أحمد باشا إلى أن يسير نحو الصحراء بعيداً عن بغداد نحو ١٧٠ ميلاً بسبب ثورات قام بها الأعراب، التي كان من المحتمل أن تسبب اضطراباً خطيراً للمملكة البغدادية الجديدة.

فسار على رأس جيشه المتمرس، إذ أراد أن يفاجيء أحد الشيوخ، وهو شيخ غني ومتغطرس.

فأسرع في السير خلال ليليتين ونهار واحد بحيث أصبح في مواجهة العدو هو شخصياً مع أربعمائة من جنوده في الصباح الباكر، أما العدو فكان له عدد أكبر من المقاتلين والعدد.

كان الملك وجنوده قد أنهكهم التعب، كما كان القسم الأكبر من مقاتليه لا يزال بعيداً مع ما عندهم من آلات الحرب بإدارة سليمان كهية نسيب أحمد باشا، وكان هذا قد أضاع الطريق، وبقدر ما كان يحاول

الإسراع للالتحاق بالجيش بقدر ما كان يتوغل في الصحراء.

وكان شيخ العرب على علم بأن الكهية سليمان قد بارح بغداد وكله إندفاع لمحاربته، ولذلك فما إن رأى مقدمة الجيش تصطف أمام خيامه وتستعد لمحاربته، وكانت قليلة العدد، حتى امتطى حصانه وحث جماعته على القتال فألتف حول جيش الوالي من جميع الجهات وتقدم نحوه للهجوم عليه.

عندئذ أمر أحمد باشا جنوده أن يصطفوا بصورة دائرة لمواجهة العدو واتخذ مع ضباطه موقعاً في الوسط بحيث كان يشجع مقاتليه من جميع الجهات ليبقوا صامدين في موقف دفاع على أمل أن يلحقهم الجيش لأنه كان يتوقع وصوله سريعاً.

كان حصان الوالي ضخماً عالياً، واختار هو موضعاً مرتفعاً بحيث كان يراقب تحركات الشيخ لكي يملي أوامره المناسبة.

ومع مرور الوقت إقترب الأمير العربي (الشيخ) من صفوف المحاربين واكتشف بأن غريمه لم يكن سليمان كهية بل أحمد ملك بغداد نفسه الذي كان يقود أولئك المقاتلين، بحيث كانوا يحاربون ببسالة دون أن تظهر عليهم أي علامة خوف أو تراجع أو هروب، بل مستعدين للموت ولن يستسلموا، لذلك أصدر إشارة إلى أعرابه ليتراجعوا كل واحد إلى موقعه، وعندما صاروا كلهم على بعد مئة خطوة، وفي إشارة منه أمرهم أن يتبعوه فشمروا سيقانهم للريح وبسرعة البرق توجهوا إلى جبل تاركين الخيام وكل ما فيها للملك ولجنوده.

مروة بمروة:

بعد انهزام الأعراب رأى أحمد باشا جنوده المستعدين للسلب والنهب ينتظرن إشارة منه، لكنه منعهم تحت طائلة الموت من لمس أي شيء من دون إذنه.

ثم دخل بنفسه إلى خيمة الشيخ فرأى هناك زوجه وكانت تريد أن ترمي بنفسها عند قدميه فمنعها قائلاً لها: إنه جاء إلى هنا كعدو ويريد أن يعود من هنا كصديق صدوق، وأخرج من عبه[1]، منديلاً مطرزاً جميلاً ولفه على رأسها علامة للصداقة، وطلب منها أن تخبر زوجها بأنه ينتظره في بغداد للحديث معه شخصياً، ووزع بعد ذلك مرطبات على جماعته المتعبة، وعلى جماعة سليمان كهية التي وصلت أخيراً.

ثم جمع قواته كلها وفي ثلاثة أيام ونصف عاد إلى المدينة، وكان قد فقد عدداً كبيراً من الجنود في الصحراء سواء أكان بسبب العطش أو بسبب حرارة الجو، كما نفق من خيوله ثمانمائة حصاناً.

بعد ستة أيام جاء ذلك الشيخ العربي بصحبة مئة رجل.

ولم يكتف الملك باستقباله وهو واقف بل فعل أكثر من ذلك، إذ هرع لاستقباله وعانقه ثم أجلسه إلى جانبه وسأله: "لماذا هرب من الميدان على الرغم من كثرة مقاتليه بالنسبة إلى عدد جنوده".

---

(١) العب إصطلاح محلي بين العراقيين يشير إلى الفراغ بين الثوب الداخلي والخارج في صدر الرجل.

فأجاب: "يا سيدي إن الإجلال المفروض نحو شخصكم حفزني على فعل ذلك، وبالتأكيد ما كنت أتصرف كذلك إلا عندما علمت بأن مَنْ أمامي لم يكن سليمان كهية بل جلالتكم شخصيًا".

كنت أعتقد ـ على ما بلغني ـ بأن ذلك الرجل (سليمان كهيه) كان قد ثار عليكم ولذلك تحركت وفي داخلي رغبة القبض عليه مع أصحابه كلهم فأكبلهم وأرسلهم كهدية إليكم.

ولكن عندما رأيتكم قدرت أن واجبي هو أن أبتعد عن الميدان وأترك كل ما عندي تحت تصرفكم، وقد أسعدني إعتدالكم إذ تركتم كل شيء دون أن يلحق به أذى أو ضرر، ولذا جئتكم اليوم لأقدم لكم شكري وأتقبل أوامركم مكملاً بذلك وعدي الذي قطعته لأبي المدنف مقروناً بالقسم أن أكون مخلصاً لكم دائماً، إذ أنه أكد عليّ بأني إذا وضعت نفسي تحت حمايتكم القديرة فإني لن أقع في التهلكات كما اختبرت ذلك بنفسي في لقائنا هذا.

أعجب الملك كثيراً ليس فقط بتصرف الشيخ العربي ولكن بكلامه، ووعده بالعون، ودعاه أن يبقى عنده ثمانية أيام، وكان يعامله خلالها بفرح، ويصاحبه دائماً.

وفي كل ذلك أظهر العربي خفة في الحركة واستعداداً داخلياً، ويقدر ما كان صغير الحجم كثيراً، إذ لم يكن طوله يتعدى أربعة أقدام بقليل، لكنه كان ينزل من على الحصان بسهولة ويمتطيه بخفة، وكان يستطيع أن يلتقط الرمح من على الأرض دون أن يترك سرج الحصان، وكان يتمسك بالحصان مغطياً نفسه وراء رأس الحصان ويركض واللجام محلول.

لقد أعجب الملك به وبرجاله فقدم لهم هدايا، وبعد ثمانية أيام عادوا

إلى أماكنهم وهم يلهجون بمدح الملك ويشهدون بين جماعتهم المعتزة بنفسها، وأنه لا يزال هناك رجال يتصرفون بنور العقل ويعرفون كيفية التصرف ضمن حدود واجباتهم على الرغم من كثرة أعمالهم.

الراهب الحكيم:

عاد الرجال الذين اشتركوا بهذه الحملة وهم يتشكون من مختلف الآلام، فقد بقي الملك يومين وهو يشكو من ألم شديد في رأسه، والباش آغا[1]، من التهاب بجلد الرأس، وأصابت الحمى عدداً غير قليل من العسكريين، ولكن بحمد الله لم يمت أحد من الذين عالجتهم، أما من الآخرين فقد مات كثيرون.

إن العلاج الذي كنت أمارسه كان يجري والحق يقال بعون الله ومن أجل مجده، والحادث التالي يؤيد قولي: سَمِعَتْ (خانم أفندي) أخت الملك بأني عالجت الباش آغا أي القائد العام للفرسان من الورم بجلد رأسه فشفي في بضعة أيام ففكرت بأن تدعوني لأعالجها من ورم في عنقها ويمتد إلى صدرها[2]، لكي أزيل هذا العارض المؤلم الذي يصيب عادة النساء أكثر من الرجال.

وأنا لم أكن أعرف شيئاً عن هذا المرض ولا خبرة لي فيه، ولذلك لم أملك الشجاعة لأباشر مثل هذا العلاج فأنجح به.

وكان رجال القصر يرددون بأن هذا المرض أصاب السيدة عندما كان

---

(١) باش آغا أو آقا هو رئيس الأغوات أو هو قائد الينكجرية.

(٢) أظنه يشير إلى تضخم الغدة الدرقية.

أخوها الملك يتيه في الصحراء ملاحقاً من الوزير الكبير علي وهي كانت زوجه المطلقة.

وإزاء طلباتها المتكررة والملحة كنت أجيب دائماً بأن معالجة مثل هذا الورم ليس من اختصاصي.

أما هي فكانت تردد دائماً بأن الباش آغا شفي من الورم الذي كان في رأسه فلماذا لا تشفى هي من ورمها؟...

وتدخل الملك في الأمر حتى قال لي: "أعدد لها دواء لا يضرها لترتاح".

وإذ رأيت أن الجميع يطلبون ذلك قلت: لا بد من أن أراها! وفي قلبي أنهم سيمتنعون عن عرضها علي فأتخلص بذلك من هذه الورطة.

لكن السيدة كانت مقتنعة كل الاقتناع بأن شفاءها من هذا التشوه الذي كان يعذبها سيتم على يدي.

فوجدت بنفسها طريقة للخروج من الحرم فذهبت بسرية تامة إلى بيت أمين الكمرك وطلبت منه أن يدعوني، فلما حضرت أدخلوني إلى حرم البيت فارتني الورم الذي بدأ منذ ثمانية أعوام وامتد.

إنكببت في تلك الأيام على قراءة كل كتب الطب التي كانت في حوزتي لأدرس أعراض هذا المرض وطرق معالجته، لا بل تصفحت بعض الكتب الخطية العائدة إلى أحد رهباننا، وبعد درس وتمحيص وجدت ضالتي في دواء إعتقدت بأنه سوف يؤثر في الورم لا بل يزيله، فبدأت بإعداده، وللتأكد من فائدته قررت أن أجربه في شاب يهودي كان يشتكي من ورم

شبيه بما عند السيدة (الخانم) وكان يتمنى قلبياً أن يشفى منه، فدعوته وعالجته، وإذا بعد مرور أربعة أيام قد تحسنت حاله، ثم خف الورم في ظرف ثمانية أيام، ثم زال كلياً بعد خمسة عشر يوماً. فاطمأنت نفسي إلى هذا الدواء وشكرت الله على النتيجة.عندئذ أعددت كمية جديدة من هذا الدواء، وكتبت طريقة استعماله وارسلته إلى السيدة، وبعد أربعة أيام جاء آغا الخصيان يخبرني بأن النتيجة حسنة ويطلب مزيداً من الدواء لأن ما أرسلته إلى السيدة قد نفد.فاضطربت لهذا القول واستغربت منه لأن الكمية التي ارسلتها سابقاً كانت معدة لخمسة عشر يوماً فكيف نفذت في أربعة أيام؟فضحك الرجل وقال لي: إن الدواء إستعملته ثلاث نساء: أخت الملك آسيا Assia، وابنته الثانية، وآسيا أفندي ابنة أخته.

فأعطيت كمية جديدة كافية لهن، وقبل مرور خمسة عشر يوماً أسعدت بسماع خبر مفاده أن النساء بحال أفضل وأنهن يبلغني السلام.

ثم أرسلن إلي هدايا تعبيراً عن شكرهن: أقمشة هندية الصنع وبعض الأكلات وأنهن مستعدات لتلبية أية حاجة أطلبها منهن.

فكرت بأن هذه فرصة حسنة كي أطلب من الملك بوساطة السيدات الفاضلات بأن يأذن للمسيحيين من كل الطوائف حضور المراسيم الدينية في كنيستنا من دون أن يلحق بهم الأذى، فكتبت هذا الطلب وأرسلته إلى سيدات الحرم مع الآغا الذي كان يراجعني بهذا الخصوص، وبقيت أنتظر النتيجة.

في صباح اليوم التالي عندما ذهبت لمعاينة الملك على حسب العادة قدمت له عرضاً طالباً باسم القنصل الفرنسي في البصرة الإذن بأن يرفع رأيته في بعض المناسبات فوق مسكنه، وأن يوافق أيضاً على نظام

الامتيازات الاجنبية الجديدة التي أقرها الباب العالي، فرجوته أن يوافق عليها، كما وافق عليها السلطان فلبى لي طلباتي كلها وسألني إن كنت أريد شيئاً آخر، فترددت ونسيت الكتاب الذي كنت قد أرسلته إلى السيدات.

فقلت له: "ليس لدي طلبات أخرى.

لكنه أضاف: "إن لم يكن لديك شيء آخر تطلبه مني فإن عندي ما يفرحك ويرضيك لأني لا أريد أن أكون أقل امتنانا لك من أختي وابنتي وابنة أخي، إني أمنحك المنّة التي طلبتها بوساطتهن، وإن كان لا يكفيك بيت واحد ليجتمع فيه المسيحيون ويقيمون الصلاة فخذ بيتين أو ثلاثة إن أردت بشرط أن تبقى في خدمتي".

عندئذ شكرته كما هو واجب عليّ، وإذ كان يودعني أرسل في نفسه اليوم أمين جاويش causc - Amin مع تعليمات بأن يأتي أمام جامع الخلفاء مع الجيران المسلمين إلى بيتنا وأن يعلن على الملأ بحضورهم ما كنت سأقوله.

وكان عدد المجتمعين ٥٢ شخصاً، فقرأت على مسامعهم بنود نظام الامتيازات الأجنبية والبيورلدي[١]، المؤيد لها، ثم أعلن الجاويش إرادة الملك التي يأمر بها تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة الأموال على كل من تجاسر ومنع بأية طريقة كانت المسيحيين من أية طائفة كانوا من المجيء إلى كنيستنا وإقامة الصلاة العمومية فيها.

وعندما انتهى الاجتماع خرج الرجال المسلمون فودعناهم.

---

(١) هي الأوامر الصادرة من الصدر الأعظم والوزراء والولاة في الدولة العثمانية.

ويقي عندنا بعض المسيحيين الذين رتبوا الكنيسة ودعوتهم في اليوم التالي لرفع صلاة الشكر Te Deum وكانت تعزية عامة.

كما أرسل الملك عسكرياً انكشارياً وأمره أن يقوم بحراستي ليلاً ونهاراً وأن يقف أمام الباب لمنع أي تجمع شغب قد يحدث عندما يجتمع المسيحيون لإقامة صلواتهم.

كانت عادات حميدة قد أهملت منذ سنوات ولا سيما لتربية الصبيان، ولذلك حثيت آباء العائلات على إرسال أولادهم إلى المدرسة، واستعنت بشماس من البلد ليعلمهم القراءة والكتابة والتراتيل الدينية وسائر مباديء التعليم المسيحي، وكانوا يلتزمون بالنظام نظراً لوجود الانكشاري عند الباب وعملاً بالتعليمات التي كانت تصدر من وقت إلى آخر بخصوصهم.

وشرعوا يتنافسون في الحسنات وكان زملائي من الآباء الكرمليين يساعدون في إقامة الشعائر الدينية والممارسات التقوية.

ثورة السعدون:

نَعِمَ أهل بغداد كلهم من مسلمين ومسيحيين بالأمن والسلام في ذلك الزمن، ولكن حدث أن سعدون ذلك الأمير العربي الذي كان يلحق الأذى بالقوافل، ولا يحترم الاتفاقيات المبرمة مع الملك، بدأ من جديد يتصرف هكذا مما اضطر الملك إلى إرسال حملة تأديبية ضده أسند قيادتها إلى نسيبه سليمان كهية الذي باغت السعدون في وقت لم يستطع فيه جمع أكثر من ثلاثين ألفاً من الفرسان فغلبه وكسر شوكته.

ولسوء حظ الرجل أنه في اليوم السابق للمعركة جرب العديد من

خيوله ليختار أفضلها عدواً، لكن الحصان الذي اختاره صار سبباً لهلاكه؛ لأنه بعد انكساره في المعركة واعتماده على سرعة حصانه التي اختبرها في اليوم السابق، أراد أن يهرع إلى خيامه لينقذ النساء، لكنه رأى أنه لا يستطيع أن يحقق ذلك لهذا أطلق ساقيه للريح فتبعه جندي أسمه صادق (صديق؟) Sadoch ووصل إليه ومسك الفرس من لجامها بقوة وقادها إلى الكهية رافضاً كل عروض صاحبها المغرية، فألقى القبض على الشيخ العربي، فقتله الكهية وأمر

بإرسال هامته إلى السراي ببغداد، فوضع على رأس رمح وعلى دوي مدافع القلعة عرض أمام باب السراي، وبقي هناك ثلاثة أيام[1]، ثم أرسل في وقت لاحق إلى اسطنبول، وعلى أثر ذلك رقي سليمان كهية إلى رتبة باشا من حملة الطوغ الواحد.

أما الجندي صادق فقد منح أربعة آلاف سكودو من نساء الكهية، وستة آلاف وخمسمائة من الباشا الجديد نفسه أي من سليمان كهية، وكان قد أهداه الفرس الخاصة بذلك الشيخ العربي وما عليها من سرج ثمين وغير ذلك.

وكان الملك قد رثى وفاة هذا الرجل ولم يرد أن ينظر إلى رأسه؛ لأنه كان يحترمه فهو رجل شجاع جداً، أظهر ذلك إلى اليوم الأخير من حياته، لكن الذي حدث أن الحربة التي كانت بيده إنكسرت في القتال وكذلك

---

(١) يؤيد ذلك السويدي: حديقة الزوراء، ص ٤٣٥ ويؤكده العمري: زبدة الآثار الجلية، ص ٢٢٩، ومشاهدات نيبور سنة ١٧٦٥ ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ١٩٥٥، ص ٦١، لكن رسول الكركوكلي يذكر أن الجيش قبض على الشيخ وأرسله مقيداً إلى بغداد، أنظر: دوحة، ص ٤٤.

رمحه، إذ اصطدم بدروع الأغوات وخوذهم في هجومه عليهم ودفاعه عن نفسه أمامهم وانفصل أحد الركابين عن السرج وبقي يقاتل إلى أن عثر الحصان فسقط عنه مرتين وعاد فامتطاه بشجاعة وما أراد أن يتراجع أو أن يقصر عن القتال.

وإتتني في تلك الأيام فرصة الذهاب لزيارة ضريح النبي أشعيا[1]، وكنت أمني النفس منذ زمن بعيد لرؤيته نظراً للأمور العجيبة التي رواها لي بعض اليهود ولا سيما عن بئر عميقة جداً وصفوها لي وقالوا إنها قريبة من الضريح.

فرحلت بإذن الملك مع عدد حسن من الحراس البغداديين، وجاء بصحبتنا المستر داريل المقيم الإنكليزي[2].

وبعد مسيرة خمس عشرة ساعة وصلنا إلى الحلة Ella وهي مدينة واقعة في الأرض العربية الصحراوية على ضفاف الفرات بين الغرب والشمال.

ففي هذه المدينة شرع الرابي اشي Ase المشهور[3]، بكتابه التلموذ البابلي[4]، وبالكاد استطاع أن يدون ٣٥ كتاباً، إذ حال الموت دون ذلك

---

(١) النبي أشعيا من أنبياء العهد القديم الكبار، له نبوة تعرف باسمه (القرن السابع ق.م)، ولم يذكر المؤرخون أنه جاء إلى العراق، والأرجح أن صاحبنا ذهب إلى المزار المعروف بذي الكفل، وهو النبي حزقيال. أنظر: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥، ص ١٤٢.

(٢) هو القنصل الانكليزي في البصرة.

(٣) لعله الحبراشي المتوفى سنة ٤٢٧م، أنظر: رحلة بنيامين، ص ١٩٨.

(٤) يحتوي على شروح الشريعة الموسوية والتقاليد اليهودية، وهو قسمان: المشنا أي

فأكمل تلاميذه العمل من بعده.

إلى الغرب من الحلة يشاهد فوق جبل متوسط الإرتفاع برج يقولون عنه إنه برج بابل[1]، لكنه ليس برج نمرود المشهور الذي سأتكلم عنه لاحقاً، وأقدم رسمه في الجزء الثالث من رحلتي.

أما هذا البرج فما هو إلا بقايا حصن مشيد بالآجر المفخور بالنار، وربط إلى بعضه بخليط من الكلس والرمل.

هناك أبدلنا خيولنا وسرنا أربع ساعات أخرى في القفر حتى وصلنا إلى الضريح المزار الذي شيد فوقه المسلمون مسجداً كان اليهود يستخدمونه كمجمع للصلاة.

البناء كله مشيد على طراز هيكل قديم، ويحيط به سور يستطيع المدافعون أن يقفوا عليه كما في القلاع القديمة.

وله من الخارج ريازة غريبة الشكل، يوجد في وسط البناء تابوت مغطى بسجادة خضراء ويقولون إن بقايا النبي محفوظة هناك.

إلى اليسار من التابوت (الضريح) وقرب جدار البناء توجد ثمان درجات تؤدي إلى منبر شبيه بما نراه في الكنائس القديمة الكبرى، هناك يقرأ المسلمون القرآن ويفسرونه.

مجموعة التقاليد الشفهية، وغمارا وهو تفسير المشنا، وهناك تلموذ فلسطيني، لكن التلموذ البابلي أعظم شأنا.

(١) أظنه يتكلم عن برج برس نمرود.

أما ما قيل عن البئر فبعد أن ألقينا نظرة على المكان، رأينا أن الكلام لا أساس له.

النجف الأشرف:

عدنا إلى الطريق وبعد سير ساعتين رأينا من بعيد قبة ضريح (الإمام) علي الفخمة التي تشاهد من كل الجهات على بعد عشرين ميلاً في تلك الصحراء القاحلة.

وقد جرى إكساء هذه القبة بألواح كبيرة من النحاس المطلي بالذهب من قبل الشاهنشاه[1]، الذي كلف لهذا العمل أربعة وأربعين صائغاً عملوا لمدة سنتين في تذهيب النحاس والمسامير لا غير؛ لأن المواد الضرورية أرسلت كلها من بلاد فارس محملة على ثمانمائة بعير.وقد أقيمت هذه القبة فوق جامع كبير، لكنهم لم يسمحوا لنا بالدخول فيه، وقد نظرت إليه من الخارج فرأيته مشيداً بحسب طراز هندسي جيد.

يقع هذا الجانب في وسط القرية المسماة (مشهد علي)[2]، ويدخل فيه الفرس (والمسلمون)، وعند خروجهم منه يسيرون إلى الوراء لعظم إجلالهم لصاحب هذا المكان.

وقد قيل لنا إن ضريحه مغطى بأقمشة ثمينة مشغولة بالذهب، وفيه مصابيح كثيرة مضاءة حول الضريح.

---

(١) جعفر بن الشيخ باقر آل محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، صيدا - ١٣٥٣هـ، ص ٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠.

يروي الفرس. . . . أن الضريح كان مخفياً لا يعلم به أحد، وبعد سنوات كثيرة وبينما كان ملك الفرس [1]، في سفرة صيد وكان يجدّ في أثر غزال، إذا بالحيوان يقف فجأة في هذا المكان ويبدأ بنبش الأرض بحافريه، فتعجب الملك من ذلك المنظر واعتقد بأن هناك أمراً مهماً فأمر بحفر المكان فظهر جثمان علي فأمر ببناء هذا المسجد الشامخ[2].

كان عدد كبير من الحمام يعشعش في زوايا المكان وجدرانه ويحوم حوله، ولما كان ذبحهم محرم على زوار المسجد لذلك تكاثروا جداً وأصبحوا يقتربون من الناس بلا خوف حتى أنهم كانوا يلتقطون الرز من على موائد الزوار.

قالوا لي أيضاً بأن البحر كان قديماً يصل إلى هذا المكان، ولكن حدث في أحد الأيام أن خاتم سيدنا علي سقط من أصبعه في الماء، ولما بحث عنه ولم يجده أمر الماء بالإنحسار فرجع مسافة مسير ثمانية عشر يوماً، ولم تعد المياه إلى الساحل السابق، وأروني أعمدة كانت السفن تربط بها، ومهما حاولت أن أكتشف في ذلك القفر الواسع أثر الساحل فلم أجد، واعتبرت هذه القصة شبيهة برواية البئر التي لا قرار لها المجاورة لقبر اشعيا النبي.

زيارة الكوفة:

صباح اليوم التالي ذهبنا إلى المدينة القديمة الكوفة Coffa التي شيدها ـ على ما يقولون ـ نمرود بعد أن توقف العمل في بناء برج بابل، وفي ظني

(١) التقليد المحلي ينسب هذا الحادث إلى الخليفة هارون الرشيد، المرجع نفسه ص٣٠-٣١.

(٢) أنظر الملحق الثاني.

أن هذا البناء يشبه كثيراً البرج المذكور سابقاً؛ لأن جدران هذا البناء وذاك مبنية بآجر عرضه شبر ونصف، وارتفاع القطعة الواحدة ستة أونسات.

ورأينا في قوس الباب الذي لا يزال بحال حسنة كتابة قبطية[1] لم نستطع قلعها كما أردنا، ولم تكن البيوت عالية على ما يظهر بل بالحري واطئة وعميقة تحت مستوى الأرض لأن السكان كانوا ينزلون إلى هناك نظراً لحر الصيف الشديد.

وفي طريق العودة إلى بغداد رأينا أكثر من ألفي زائر فارسي كانوا يسيرون في جماعات: كل جماعة تعد مئة زائر من الجنسين، وفي وسط كل جماعة كان يوجد رجل دين يقرأ سيرة (الأئمة) علي والحسن والحسين وأولادهم، وعندما كان يتوقف من وقت إلى آخر كانت تصدر عن ذلك الجمع صراخات ونواح وبكاء وكانوا كلهم يلطمون وجوههم بالكفين، وكان آخر موكب يتبع المسيرة ببكاء مستمر.

لم يكن بين هؤلاء السائرين في الموكب من يحمل كتاباً أو يقرأ.

فاستغربت ذلك المنظر واستفسرت عن السبب من أحد الأصدقاء المرافقين لنا فقال: "إن الملا أنهى قراءة السيرة، وعليه أن يتوقف إلى أن يأتي أفراد القافلة الآخرون ويتوقفون في المكان المخصص للراحة".

ويحدث أن عدداً كبيراً من هؤلاء الزوار يموتون في أثناء هذه الرحلة، فقد رأيت في يوم واحد إثني عشر شخصاً يدفنون الواحد بعد الآخر.

والذين لا يستطيعون القيام بهذه الزيارة بإمكانهم أن يشتروا ثوابها من

(١) أظنه متوهما فلعل الكتابة كانت أرامية أو عربية بخط كوفي؟

آخرين يقومون بهذه الرحلة ويبيعون للشاري ثواب زيارتهم.

وعلمت من أحدهم أنه اتفق على الثمن وذلك لقاء ثمانين توماناً[1].

إن زيارة هؤلاء الناس هي جزيلة الفائدة للملك بغداد، لأن المتمكنين مالياً يحملون من بلاد فارس بضائع مختلفة ولا سيما الأحجار الكريمة، ويتقايضون بها حيوانات الركوب كالخيل أو البغال.

كما أنهم يدفعون عند عبورهم الجسر ضريبة مرور قدرها زكينو عن كل نفر.

موكب الوالي:

رأيت عند عودتنا إلى المدينة ابنة الملك الصغيرة مريضة وتشكو من آلام كثيرة، ثم شفيت تماماً بعد ثلاثة أيام.

ولكن في اليوم التالي الذي يقع في عيد المسلمين المعروف باسم عيد الأضحى أي وصول قوافل الحجاج إلى مكة وتقديم الأضاحي هناك، فإن الملك كان سعيداً بالعيد وبشفاء ابنته ولذلك أراد أن يظهر للجماهير.

كان يسير أمامه ثلاثة عشر حصاناً يمسك زمام كل واحد رجل من الأشراف يرتدي زياً ثميناً يقدره الخبراء الأنكليز بما يساوي مليون قرش للواحد! وأرجو أن لا يستغرب القاريء من ذلك إذا علم بأن الغطاء الذي يسدل على جسم الحصان حتى يصل الأرض كان مخيطاً بلؤلؤ شرقي،

---

(١) التومان اسم نقد إنتشر في إيران، وقد يكون من ذهب أو فضة أو من نحاس، أنظر: العزاوي: تاريخ النقود العراقية، ص ٣٩ و ١٧٢.

اللؤلؤة بجانب الأخرى.

وأما مكملات السروج فكانت من ذهب أبريز مرصوعة فيها أحجار الياقوت Rubini والزمرد Smeraldi بأحجام كبيرة.

بهذا الموكب الفخم كان الملك يخرج من السراي ليذهب إلى الجامع حيث يؤدي صلاة العيد، وبهذه الفخامة نفسها كان يعود إلى القصر حيث يأتي علية القوم من أهل بغداد وكبار الموظفين المتقدمين إذ في ذلك اليوم يحضرون لتقبيل يده.

أما هو فكان يقف على عرش فخم أقيم في فناء السراي.

كان أول من تقدم لتقبيل اليد القاضي، وتبعه المفتي، ثم آقا الانكشاريين ومن ثم تبعه آقا القلعة والضباط: فأولهم الضباط المسؤولون عن الأرزاق ثم المسؤولون عن العتاد، وكان الأولون يلبسون جباباً من فرو القاقم، أما هؤلاء فجبابهم من فرو أبسط أو من أشرطة فضية، ويتبع هؤلاء قائد الفرسان وكان لابساً جبة من فرو موسكو، ثم جاء الكهية والخازندار وآقا المفاتيح وعدد كبير من الموظفين.

وكانوا قد وضعوا حول ساحة السراي تحت الخيام عدداً من الخرفان المشوية، وأطعمة أخرى كثيرة التي ما أن تنتهي مراسيم السلام حتى يتم الهجوم على تلك الموائد.

وبقدر ما تصدر عن الآكلين الأصوات العالية والضحكات المدوية بقدر ما يعني ذلك أنهم يعبرون عن شكرهم ومحبتهم لسيد الدار وحسن إدارته، أما إذا تصرفوا بخلاف ذلك أو التهموا الطعام بسرعة فيعني ذلك أنهم غير مسرورين.

يد اليهود:

في شهر أيلول سنة ١٧٣٩ رفعت إلى الملك تذمرات ضد مصرف محمد آغا الذي كان يدير دائرة الدخل منذ سنوات عديدة وقد أثار غضب اليهود فانقلبوا ضده، وأصبحوا أعداء له، إذ كانوا يتهمونه بأنه اغتنى كثيراً من جراء الضرائب المفروضة قسراً، وقد جمع مالاً كثيراً وأحجاراً كريمة، وفي فكره مخطط لمغامرة عن طريق ثورة شعبية.

تكلموا عن هذه التهم بألوان كثيرة بحيث أدوا في آخر الأمر إلى حبسه فجرى تهديده وتعذيبه، فكان ينكر الإتهامات كلها جملة وتفصيلاً.

عندئذ ألقي القبض على زوجاته وجعلن في أكياس من الجلد ومع كل واحدة قطتان، وكن يضربن بالقضبان فيتألمن ومن خلال الضرب تثار القطط فتنهش أجسادهن.

وعلى الرغم من ذلك لم يعترفن بمكان وجود أموال رجلهن، وأنكرن معرفتهن، وبهذه الطريقة أسلمن أرواحهن.

أما ما جرى (للمصرف) فهو وإن أنكر استغلاله لوظيفته، لكنه قدم طواعية ما عنده من خيرات إلى بيت المال الملكي.

وبهذه الوسيلة خفف من عذابه الذي كان يتحمله يومياً لمدة طويلة وعلى الرغم من كل ذلك لم يحصل على تبرئة أو إدانة.

كان لهذا الرجل ابن له من العمر إثنتا عشرة سنة، هذا الفتى استوعب حال أبيه فتحنن عليه، فعمد إلى تلطيخ نفسه بالسخام وجاء فرمى بنفسه

عند أقدام الملك، فلما رآه مكتئباً وبهذه الحال المزرية، سأله عن ذلك، فأجاب بعض كبار الحاشية: هذا ابن المصرف يطلب منك العفو عن أبيه.

فتعجب الملك عندما علم بأن المصرف لا يزال حياً لذلك عفا عنه ورده إلى ابنه، ونفاه إلى البصرة.

هناك ساعده كل من القنصلين: الفرنسي والانكليزي فبقي هناك زمناً طويلاً ثم استعاد تدريجياً مكانته السابقة، ولم ينس موقف المحسنين إليه فأظهر لهم الامتنان.

سلمان باك:

في هذا الزمان اضطررت للسفر بسرعة إلى البصرة لأمور ضرورية تخص ديرنا هناك، ففي اليوم الثامن من شهر كانون الأول ـ وهو عيد السيدة العذراء مريم ـ ركبت سفينة يقال لها تكنة[١]، وهي سفينة صغيرة الحجم معدة من الخشب تسير في دجلة.

وقبل أن تغرب شمس ذلك النهار وصلنا إلى قرية صغيرة حيث رأينا المسلمين يأتون لزيارة قبر سلمان باك[٢].

ويقولون عنه إنه حلاق الرسول، وأردت أن أطلع على بعض فضائله

---

(١) التكنى أو الثكنة سفينة مغطاة تبنى في البصرة لنقل الأموال بطريق دجلة إلى بغداد وتسير كذلك في الفرات لتأمين الطرق ولضبط أعراب تلك الجهات، سركيس: مباحث ١: ٣٥٤.

(٢) في النص: سليمان وهو خطأ.

بحيث أنه استحق كل هذا الإكرام والتبجيل، فقالوا لي: إن هذا الولي هو عربي الأصل[1]، وقد اتهمه بعضهم بأنه رآه يراود النساء بعكس تعليمات الشرع، فظهر النبي فجأة ليعلن للملأ براءته، وأعلمهم بأن حلاقه كان خصياً، ثم أُسبغ عليه لقب (باك) التي تعني الطاهر.

يهرع إلى قبر هذا الولي الناس الذين يتشكون من ألم في عيونهم آملين أن يستعيدوا نظرهم المفقود بشفاعته، وقد قالوا لي بأن لا أحد قد شهد حصول معجزة.

وعلى مسافة قليلة من تلك القرية تشاهد آثار هيكل فخم من بناء الأقدمين، ترتفع عقادته أكثر من مائة وخمسين ذراعاً عن مستوى الأرض من حيث يبدأ البناء.

وهو مشيد بقطع من الآجر المفخور بالنار، عرض القطعة الواحدة نحو شبرين وارتفاعها (سمكها) ثلاثة أصابع وقد بنيت بوساطة القار.

وعرض هذه العقادة سبعين خطوة وطولها مائة وأربعون، وحاول كثيرون من الحاضرين رمي الحجارة إلى الأعلى لتلمس العقادة لكن أحداً لم يقدر على ذلك.

في واجهة الباب الشرقي لهذا البناء يوجد ما يشبه المسرح فيه حنايا كثيرة وأعمدة لكنه شبه مهدم.

---

(١) والمعروف أنه فارسي.

الأسود في العراق[1]:

بينما كنت أمعن النظر في هذا البناء سمعت زئيراً مخيفاً! إنه زئير أسد كان قد التجأ إلى ذلك المكان.

فخفنا وعدنا أدراجنا سريعاً إلى السفينة، واستأنفنا السفر في دجلة إلى حين التقائه بنهر الفرات في مكان يسمى (القرنة).

ودعاني رفاق السفر لملاحظة المد والجزر، إذ ترتفع المياه وتمتد ثم تنحسر في ساعات معدودة بحيث أن السفن تبقى في الأرض أحياناً بعيدة عن الماء عشر خطوات.

تكثر هناك الأسماك التي يصيدها الناس في أمكنة قريبة في شط العرب، وهم يضعون في النهر حاجزاً من القصب، وعندما يرتفع الماء تدخل الأسماك في مربع القصب فتبقى محبوسة عندما ينحسر الماء.

كانت ضفة النهر الشرقية عامرة بالنخيل التي تحمل كميات عظيمة من التمور التي تغني سكان تلك المناطق.

فهم يصنعون من التمر خلاً وعرقاً وعصيراً لذيذاً هو عسل التمر (الدبس)، ومنه يصنعون حلويات عالية الحلاوة، لكن سكان البلاد يستطيبون طعمها ويأكلونها بشراهة!

---

(١) كانت الأسود كثيرة الوجود في العراق كما يظهر من المنحوتات الآشورية والبابلية، وقد بقيت إلى عهد رحالتنا، وذكر وجودها أيضاً سبسيتاني في رحلته: ص ٣٣، وتافرنيه: العراق في القرن السابع عشر: ص ٧٢ وغيرهم.

وصلت إلى قناة البصرة قبل عيد الميلاد بيومين، وهذه القناة لا تسير فيها السفن إلا مدة المد، ولذلك لابد من الإنتظار.

وكانت مدة الإنتظار فرصة لإلقاء نظرة عن ما حولنا فرأيت حديقة غناء واقعة على القناة قالوا إنها تعود إلى القنصل الهولندي، وكم استغربت إذ رأيت أنهم قد سمحوا له أن يضع على الشرفة مدافع من البرونز تستطيع أن توجه ضرباتها إلى مختلف جهات القناة.

وكان قرب هذه الحديقة قصر فخم قيل لي إنه قصر القبطان باشا آمر القوة البحرية المكونة من سفن عديدة مجهزة بالسلاح وبالرجال.

وتبعد المدينة عن هذا المكان ميل ونصف، ولكن لابد من المرور بدائرة الكمرك قبل المضي إلى المدينة، وذلك بالسير بمحاذاة بناء طويل فيه أروقة عديدة يسكن تحت بعضها رجال دراويش يجلسون يوم السبت على فحم ملتهب أي على جمر إظهاراً لقداستهم ويهرع الناس لرؤيتهم...

وأخيراً وصلت إلى ديرنا في البصرة فزارني القناصل الثلاثة أي الفرنسي والإنكليزي والهولندي.

وفرحت عندما علمت بأن المشاكل التي نشبت بين ديرنا وأحد القناصل الجدد قد تم حلها بالتي هي أحسن.

وقد رجاني القنصل الفرنسي أن أصعد إلى سفينة فرنسية كانت تحمل على متنها إلى جانب الضباط نحو مائتي بحار كانوا يتمنون أن يكملوا واجباتهم الدينية؛ لأنهم حرموا منها طول سفرهم في البحار، فصعدت بطيب خاطر ورافقني الأب بروسبيرو Prospero رئيس ديرنا في البصرة وبقينا في السفينة ثلاثة أيام قمنا خلالها بمراسيمنا الدينية.

وفي اليوم الرابع عدنا إلى البصرة وهي مدينة كبيرة واسعة مسورة لكنها قليلة السكان وليس فيها أبنية فخمة.

وأهم ما فيها ومدعاة فخرها هو ميناؤها الذي تأتيه السفن من الهند محملة بمختلف البضائع الثمينة.

العودة إلى بغداد:

بعد أن أمضيت أياماً قليلة في تلك المدينة، استأجرت قارباً ليحملني إلى الحلة عن طريق نهر الفرات، وقد لاحظت في سفري هذا وجود مستنقعات (الأهوار) مهيأة لزراعة الرز، لكنها في الوقت نفسه تسبب هواء مضراً بالصحة.

وقد رأيت هناك أسداً منكباً على التهام بقايا حصان نافق.

وقد صوب بعض ركاب القارب نيرانهم نحوه فلم يصب بأية طلقة، كما أنه لم يخف ولم يتحرك من مكانه، وكنا نسمع أصوات الحيوانات البرية الليل كله.

فظهر لي أن لا أساس لقول بعضهم إنه عند صياح الديك تتوقف الحيوانات الأخرى عن الصياح، لأننا ما أن بزغت الشمس حتى سمعنا صياح الديك من جهة وأصوات الحيوانات من جهة أخرى.

ثم مررنا في مكان آخر كان المستنقع مليئاً بالقصب العالي قيل لنا إن (الإسكندر) المقدوني مر من هناك بطريق عودته من الحرب.. وكان هذا المستنقع مليئاً بالدبابير وعلى الرغم من أن الزمان كان فصل الشتاء لكن الدبابير كانت نشطة ولم تقصّر في لسع المسافرين.

كان حاكم الحلة قد أمر بحفر قناة في الصحراء تتسع لمرور مركبين في وقت واحد وبهذا العمل اختصر المسافة كثيراً، إذ لم يعد من الضروري أن يستمر الراكب وقتاً طويلاً في النهر.

ومن الحلة أكملت الطريق إلى بغداد بوساطة الحصان الذي جهزني به الحاكم.

عندما وصلت إلى بيتنا جاء لزيارتي شاب، وبعد أن قبّل يدي سألني إن كنت أتذكره، فأجبته: كلا.

فأردف قائلاً: ألست أنت الأب الذي كنت مريضاً قبل سبع سنوات في همدان؟

فأنا كنت ذلك الصبي الذي جاء لزيارتك وأعطيتك ثلاثة عشر محموديا، ثم عدت بعد سنتين حاملاً إليك طنفسة كهدية لكني لسوء حظي لم أجدك!

كم كنت معجباً بتصرف هذا الإنسان، وكم رويت على الآخرين موقفه المشرف ومساعدته لي في أيام عوزي.

فبقيت مبهوتاً ومنذهلاً ومن دون أن أنطق بكلمة ترحيب واحدة أخذته بيدي وأدخلته إلى البيت ليستريح.

وأن أقوم نحوه بواجب الخدمة والإمتنان، وأهديته حصاناً لكنه رفض قبوله.

في شهر تموز ١٧٤٠ قدم إلى بغداد إبراهيم آغا الانكشاري وقد أرسله السلطان ليضع حداً لطموحات ملك بغداد، وكان قد أصيب بحمى عالية

أوصلته إلى حافة الياس على حياته، لأنه تعذب كثيراً في سفره فدعيت لعلاجه والاهتمام به.

في تلك الأيام أمر الملك بعودة (المصرف) المنكوب الذي تكلمت عليه آنفاً، وكان قد نفاه إلى البصرة.

فلما قدم إلى بغداد حمل إليّ رسائل من القناصل: الفرنسي والإنكليزي والهولندي وكلها توصيات حارة بحقه لكي أسنده أمام الملك، وبالفعل لبّيتُ الطلب وقمت بالواجب، إذ رضي عنه الملك وزوجه بسيدة غنية كانت مرتبطة سابقاً من المفتي المتوفى، وقد قدمت له منيني (مهر) ثلاثمائة كيساً[1]، فاستعاد مركزه الذي فقده في القصر، ومن ثم عاد إلى وظيفته السابقة، ولم يقصر في إبداء شكره لي.

لكن لم تمر سنة عليه في مركزه الجديد هذا حتى فرض على اليهود إتاوة مقدارها ثلاثمائة كيس، فقام هؤلاء وقدموا مثل هذا المبلغ إلى الكهية لينتقموا من المصرف، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يتخلصوا منه ليس فقط من الوظيفة بل أن يبعدوه نهائياً، فعملوا على هروب ثلاثة وثلاثين فارساً من حملة البيارق واتهموا المصرف التعيس بهذا العمل، وكانت التهمة كذباً وبهتاناً لكن المصرف حكم عليه بالشنق حالاً.

في هذا الزمان اختير للصدارة العظمى في اسطنبول ذاك الرجل الذي ذكرته مراراً في كتابي وهو الوزير علي عدو ملك بغداد اللدود.

وفي الوقت نفسه جاء إلى بلاط بغداد حسين باشا والي الموصل يطلب

---

(١) كان كيس الفضة يساوي عادة خمسمائة قرشاً، ويختلف باختلاف الزمن واختلاف قيمة القرش.

الحماية فقد أرسل إليه السلطان الحبل ليخنق به.

رأى الملك أحمد حالاً بأن عدوه اللدود علي ما أن تسنم منصبه السامي حتى فكر بالانتقام منه محاولاً القضاء على صديقه الصدوق حسين عبد الجليل والي الموصل، فأسرع وقضى على الباشا المرسل من اسطنبول ليحل في مكان حسين على الموصل فبقي هذا في مكانه مدعوماً من الملك أحمد، ثم فكر بأن يحرك من جديد ملك فارس ليلحق الأذى بالباب العثماني كما سأبين بعد قليل بما حدث بهذا الخصوص.

استغلال للتجار:

في هذا الزمان قدم إلى بغداد تجار مسيحيون كثيرون: يونانيون وسريان وأرمن وكانوا يحملون مبالغ طائلة، إذ كانت وجهتهم البصرة؛ لأن بضائع كثيرة وثمينة كانت قد وردت من الهند قبل زمان قليل.

وكان الملك في تلك الأيام بحاجة ماسة إلى سيولة نقدية فدعا هؤلاء التجار وطلب منهم أن يقرضوه مبلغاً كبيراً كان بحاجة ماسة إليه ليتهيأ للحرب التي كانت تقترب من مقاطعاته، وذلك بقيادة الشاهنشاه الذي تحرك من بلاد فارس على رأس جيش كبير، ولم يتبين بعد إلى أي بلد يوجه قواته.

أراد التجار المسيحيون أن يقدموا للملك مئة كيس على سبيل الهدية عوضاً عن القرض، وطلبوا منه أن يتقبل هذه الهدية، وأن يسمح لهم بإكمال سفرهم والمضي إلى هدفهم كما كانوا قد صمموا.

وكان بعض المستشارين في السراي قد حثوا الملك وأشاروا عليه أن

يرسل جنده ليصادروا أموال أولئك التجار لكنه لم يوافق على ذلك.

ويترآى لي أن الله جازاه خيراً لوقوفه ضد اقتراف مثل هذا الظلم.

ففي تلك الأيام وصل إلى بغداد عثمان باشا والي حلب ومعه أمر صادر من الصدر الأعظم علي باشا بأن يجز رأس أحمد.

وفي الوقت نفسه وصلت إلى الملك (أحمد) رسائل من السلطان يأمره بأن يخنق عثمان باشا المذكور آنفاً، فعندئذ اكتشفت المكيدة، وعوض أن يقضي الواحد على الآخر اتفقا أن يرتبطا بصداقة، ولذلك كاتبا الشاهنشاه وحثاه لكي يسير إلى كركوك فيسيطر عليها، ووعداه أنه بعد سيطرته على تلك المدينة سيسهلوا له الطريق لكي يسيطر على الموصل، لا بل على حلب، وليعتبر بغداد كما لو كانت خاصة به، إذ سوف يسلماها له طواعية، ولكي يعطيا لكل هذه المواعيد مصداقية دفعا محمد كهية لينتقل إلى جيش الشاهنشاه.

أما بغداد فبدأت تتجهز كما لو كان الفارسي سيبدأ بحصارها أو بالهجوم عليها قريباً.

أما أنا فلم أتدخل أبداً في شؤون الدولة إذ لم أرد أن أقع في ورطات أنا في غنى عنها، لكني كنت أسمع كل ما يتردد في البلد بهذا الخصوص، وبالرغم من ابتعادي عما كان يجري، فقد كنت مقتنعاً بأن تصرفات الملك كانت تشير إلى أنه لم يكن يخشى الحصار أبداً.

وفي أحد الأيام إذ كنت معه إذا به يوجه إليّ هذا السؤال: "أتعتقد بأن الشاه سوف يحاصر بغداد؟" فأجبته بصراحة: "أنا لا استطيع أن أقنع نفسي بأن ملك فارس يخطط لمثل هذا الهدف وهو عالم بما حدث له في

المرات الثلاث السابقة وكم كلفته تلك المحاولات".

وبينما كنت واقفاً أمام الملك أتحدث معه، دخل علينا أحد الدراويش والسبيل[1] في فمه، فهب الملك ووقف على رجليه، أما هذا ـ أي الدرويش ـ فقد تقدم إلى صدر الديوان وجلس في أكرم مكان دون أن تبدر عنه حركة احترام نحو الوالي.

وأنا كنت أعرف الرجل ولذلك طلبت الإذن بأن أنصرف إلى واجباتي، لكن الملك أشار إليّ بيده أن أبقى.

فلاحظت أن الدرويش كان يرفع عينيه إلى الأعلى وكأنه في حال ذهول أو انخطاف، ثم يعود إلى حاله الطبيعية فيركز نظره على الملك، ثم ينحني حتى يلمس جبينه الأرض.فسأله الملك إن كان الشاهنشاه سيأتي إلى بغداد فيحاصرها، فأجابه: كلا،.وإذ قال ذلك رفع رأسه عالياً ثم عاد من جديد يضرب الأرض بجبينه، وبعد ذلك قدمت القهوة، وما أن شربها حتى نهض ومضى تاركاً الديوان من دون أن يحيي الملك، وعندما خرج تسلم مائة قطعة زكينو كما جرت العادة.

وعندما ذهب الدرويش ألتفت الملك إليّ وسألني: "ما رأيك بتقوى هذا الرجل؟" ولم أرد أن أجاوب، إذ من واجبي ألا أطعن في أحد.

لكن الملك لم يرتح لسكوتي، فقال لي بنبرة آمرة أن أبدي رأيي في ذلك الرجل، فرأيت نفسي مضطراً أن أجيب: "سيدي إني لا أوافق على روحية هذا الرجل، لا بل اعتبره يتصرف بروحية غريبة" فعلق الملك على قولي بأن رأيه في ذلك الدرويش مثل رأيي.

---

(١) السبيل آلة للتدخين تصنع محليا من الطين المفخور المزجج أو من الخشب المتين.

وبعد ذلك طلبت الأذن من الملك كي انصرف إذ دخل عليه بعض رجال الدولة ليتباحثوا في شؤونها العامة.

حصار البصرة والموصل:

مضت أيام أخرى، وبينما كان رجال الدولة مجتمعين في ديوان الملك من جديد بلغهم خبر هجوم ملك الفرس في وقت واحد على البصرة جنوباً وعلى الموصل شمالاً، وقد ضرب حصاراً شديداً على المدينتين، مصوباً إليها القنابل الكثيرة بصورة مستمرة.

كان يقود الحملة الفارسية على البصرة خان الحويزة Avisa، وقد دمروا القرى حتى تلك الواقعة قرب حدود بغداد.

وكانت المدينة في ضيق شديد وتخاف من الثورة، وقد القي القبض على القنصل الانكليزي المستر داريل، لأنه أمر في تلك الأيام جماعته كلها أن يرتدوا الأزياء الفارسية.

لكن ضيقات البصرة لم تدم كثيراً، إذ سرعان ما هرع لنجدتها أميران أي: أمير المنتفك وأمير بني لام، فقد هجما باندفاع كبير على كل خنادق الفرس فلم تستطع المقاومة ففر الفرس في حال من اليأس باتجاه الحويزة.

أما الشاهنشاه فقد سار على رأس جيش عرمرم قوامه مئتا ألف مقاتل من الفرسان ففاجأ مدينة الموصل وحاصرها[1]، وكان عدد جنودها قليلاً لكي يدافعوا عنها كما كانت قليلة العتاد، إذ لم يكن عندها إلا العتاد الضروري للحرب بحيث تدافع عن نفسها.

---

(١) السويدي: حديقة الزوراء، ص ٤٨٣.

وكان يقود الميدان حسين باشا ابن الأسرة الشهيرة عبد الجليل[1]، الذي سأتكلم عليه طويلاً في الكتاب الثالث من رحلتي.

فهذا الرجل لم يفزع أمام معدات القوات الفارسية الكبيرة، بل بالعكس كان يدور بشجاعة بين المدافعين ويحضر شخصياً محاولات تسلق السور الثلاث التي جربوها في أيام مختلفة[2].

ولكي يبعد المهاجمين أمر بحفر آبار عميقة متقاربة في الخنادق ليلاً فلا يستطيع الفرس طمرها بسهولة لكي يقتربوا من السور، أو أن يجربوا التسلق من جديد إلى الأعلى لوضع الألغام من أجل هدم السور[3].

---

(١) الوالي حسين باشا بن إسماعيل باشا الجليلي، هو من أشهر الولاة في حسن الإدارة، ومن أكثر القادة العسكريين حنكة فإليه يرجع الفضل في إدارة مدينة الموصل في أثناء الظروف العصيبة أبان حصار نادر شاه للمدينة.

ولد في الموصل ودرس فيها وتولى إدارتها سنة ١٧٣٠م (١١٤٣هـ) وانتقل منها وعاد إليها وتولاها سبع مرات، وجرى هذا الحصار والنصر الموصلي في ولايته الخامسة ١٧٤١-١٧٤٦ م (١١٥٤-١١٥٩هـ) انتقل إلى رحمته تعالى سنة ١٧٥٧م (١١٧١هـ).

أنظر عصام الدين عثمان العمري: الروض النضر ١: ٥٠٥-٥٣٦، لانزا، الموصل في القرن الثامن عشر، ترجمة القس روفائيل بيداويد، الموصل ١٩٥٣-، ص ٣٧ وما يليها، الصائغ: تاريخ الموصل ١: ٢٧٨.

(٢) سيار الجميل: حصار الموصل، ص ١٦٦-١٦٨، حديقة الزوراء: ص ٤٩٠ هامش د. عماد عبد السلام رؤوف.

(٣) الألغام وتسمى في الموصل القوم ومفردها لقم هي حفر عميقة تعبأ بالبارود والرصاص وتدك ويجعل فيها ثقباً ترمى منه النار فينفجر ويهز الأرض، حديقة الزوراء: ص ٤٤٢ و ٤٩١ في الهامش.

كانت بطاريات المدافع الستة الكبيرة تهز المدينة ليلاً ونهاراً، ولم يستطع الشاه أن يلحق الأذى بتلك الأسوار على الرغم من أنها كانت مشيدة بالجص، ولم تكن مدعومة ـ من الداخل ـ بالتراب.

وسبب فشله هو أن توجيه مدافعه لم يكن دقيقاً إذ كانت قنابله تنفجر في الجو دون أن تستطيع الوصول إلى الهدف وضربه في أي موضع كان.

كان الجيش الفارسي يفتقر في هذه الحملة إلى الذخيرة (الأرزاق) أكثر من أهل الموصل، ولذلك أرسل الشاهنشاه جنوده إلى كل القرى القريبة لسلبها

وحرقها[1]، ولما لم يستطع البقاء سلك طريق الصحراء ليرحل إلى مشهد علي. ومن أجل إسباغ بعض الانطباع الحسن على انسحابه، والإيحاء إلى الباب العالي بأن حملته لم تنجح، وأن الفضل يعود في ذلك إلى ملك بغداد.

ولذلك بعد أن أكمل الصفوي زيارته إلى مشهد علي عاد فخيم قرب بغداد وهناك التقى وتبادل الأفكار مع سليمان باشا صهر أحمد ملك بغداد وقائد جيشه الأعلى، وتسلم هناك ستمائة من الرهائن الفرس وانتهى اللقاء بهدية ثمينة قدمت إلى الشاهنشاه، وهي عبارة عن خيول عربية من الأصائل من أفضل ما تحتوي الإسطبلات الملكية في بغداد، وأشياء أخرى

---

(١) الصائغ: تاريخ الموصل: ١: ٢٧٨، ويذكر ياسين الخطيب العمري: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، الموصل ١٩٥٥، ص ٢٦١، أرجوزة للسيد فتح الله القادري يقول فيها:

قرى النصارى فتكوا فيها   وفي تلكيف وبطنة ثم في تلسقف

وقطع ثمينة من الأحجار الكريمة أخرجت من الخزائن وأرسلت إلى مخيم الفرس بموكب فخم لكي يرى جميع السكان كم يكلف على الملك إيقاف العاهل الفارسي ومنعه من حملات لاحقة.

وقام الشاهنشاه فأسرع بالعودة إلى بلاده إذ كان ابن عمه kan ـ Abachi حاكم شيراز قد ثار للمرة الثالثة ضده، فأقدم على حرق السفن التي كان الشاه قد جمعها في غمبرون[1]، وأسند قيادتها إلى السيد بورتري Porterie.

حاول حاكم شيراز المذكور أن يفاجيء المدينة الجديدة مسقط حيث ـ على حد علمه ـ كان الشاهنشاه قد خبأ كنوزه.

ولما كان الشاه قد اطلع على دسائسه فقد أسرع بالعودة ووصل إلى قرب شيراز، وهناك هجم عليه وفي يوم واحد كسره، وقبض عليه حياً.

كان القصاص الذي أنزله فيه غريباً، فإنه لم يحكم عليه بالموت كما كان يستحق لقاء تصرفه الأرعن، لكنه وبسبب تقدمه بالسن أمر بأن يخصى ويبقى على قيد الحياة ويعين خادماً لسيدات الحرم.

وكان الناس ينظرون نظرة شك إلى الرجل الذي بقي على قيد الحياة ومن كل بد كانت تحتمل في داخله أفكار شريرة، إذ لابد من أن ينتقم من الإهانة العلنية التي أصابته.

أما الشاهنشاه فلم يتخذ هذا القرار إلا لغاية سياسية وهي أنه أراد أن

---

(١) غمبرون هو الاسم الذي أطلقه الغربيون على ميناء بندر عباس الذي استولى عليه البرتغاليون سنة ١٦١٤ واستعاده الإيرانيون بعد سنين بمساعدة الانكليز.

يكتشف الأطراف التي أسندته وتعاونت معه في ثورته، بهذه الطريقة استطاع أن يعرف كثيرين منهم ويقضي عليهم.

افتداء الاسرى:

عندما رحل الجيش الفارسي من بغداد كان الجنود والضباط قد تركوا عدداً كبيراً من العبيد المسيحيين الذين جرى أسرهم من البلدان الخاضعة للسلطان، وكان الفرس يبيعونهم بأبخس الأثمان، ويجري أحياناً التبادل بهم لقاء أفراس أو حيوانات أخرى أو أشياء مختلفة.

وكان الذين اشتروهم يطلبون مبالغ عالية لقاء افتدائهم.

فلما علمت بالأمر دفعتني الشفقة لأن أفعل شيئاً من أجل هؤلاء المساكين، فذهبت إلى القاضي الذي كنت أعرفه سابقاً، واتفقت معه أن يحضر إلى ديوان الملك في ساعة معينة من اليوم التالي، ليشهد على التفاوض الظالم بحق هؤلاء المساكين، وأن طريقة تصرفهم هي ضد رغبة السلطان إذ أنه يصرح بأن من يؤدي الجزية للسلطان وهو من سكان أراضيه لا يجوز أن يكون عبداً عند أتباع السلطان.

ولقد وقف القاضي إلى جانبي، بحيث استطعت أن أحرر ثمانية وعشرين مسيحياً من الرق وأعيدهم إلى ذويهم، من دون أن أدفع فلساً واحداً ثمناً لافتدائهم.

بعد ذلك فكرت في نفسي أن أقدم هدية معتبرة للقاضي لموقفه النبيل، لكن إرادة الله السامية شاءت أن أقدم له خدمة طبية أثمن من الهدية المادية، إذ حدث بعد أيام أن ابنته العزيزة على قلبه تمرضت، فقد عاد إلى البيت في

ذلك اليوم فوجد هذه الإبنة تتلوى من الألم، فأرسل يستدعيني فلبيت الدعوة وذهبت في الحال، فطلب مني بكل جوارحه أن أصنع كل ما بإمكاني لشفائها.

وكانت المريضة عند وصولي عديمة الحركة، وأما نبضها فبالكاد كان يسمع، وبانت لي بأنها ستسلم الروح بين يدي أبيها الذي كان يذرف الدموع عليها.

حاولت تعزيته وإظهار أسفي لأنه تأخر في استدعائي عندما كان علاجها أسهل. . . وأخذت أشجعه وقلت له بصراحة إن المرض الذي أصاب ابنتك هو ثقيل ومميت، ولعل علمي لن يسعفها، لكني اعتمد على عون الله وعليك أنت بالذات أن تعمل شيئاً لتستحق العون السماوي، فإن أردت أن تشفى ابنتك فعليك أن تسعى في عمل الخير، وفي أثناء ذلك طلبت منه أن يتدخل ليعيد شابة مسيحية إلى أهلها كانت مستعبدة عند أحد الأشخاص الأقوياء الظلام.

فقلت له: "إفعل ما باستطاعتك لتخليص هذه الشابة وأنا في نظري أن عملك سيكون أفضل دواء لشفاء ابنتك، لأن الله سيتقبل عملك وكذلك السيدة مريم العذراء التي تحمل تلك الشابة اسمها"، فوعدني خيراً وأنا بدوري بدأت بمعالجة ابنته. . . وبعد ستة أيام شفيت الفتاة من مرضها!..

وأردت أن أذكر القاضي بالوعد الذي وعدني به، فإذا به يدخل إلى داخل البيت ويعود ومعه تلك الشابة (مريم) التي كان قد خلصها وأتى بها إلى بيته منذ ثلاثة أيام، وهناك سلمها إلى أمها، إذ أن القاضي طلبها للمجيء إلى بيته.

خَرَّ هؤلاء المساكين على أرجلهم يريدون أن يقبلوا قدمي فمنعتهم وقلت لهم: "من واجبكم أن ترفعوا الشكر أولاً إلى الله ثم إلى العذراء مريم، وأن تقدموا الشكر إلى سماحة القاضي الذي بإخلاص عال تنازل وتدخل من أجلهم ولذلك يجب عليهم أن يصلوا من أجله ومن أجل ابنته التي أهدت بدورها منديلاً جميلاً للشابة المفتداة مريم".

ثم التفت إلى القاضي شاكراً له عمله، وذهبنا فرحين، وبعد ذلك نقلت خدمات ذلك القاضي، إذ تعين قاضياً في بورسه قرب اسطنبول[1]، واستطاع أن يذهب إلى هناك بسلام.

الضرائب:

كان الملك (أحمد) على الرغم من خروجه على السلطان، يضغط كثيراً ويطلب أن يقدره حق قدره، وأن يقتنع ـ السلطان ـ بأنه بذل إضافة إلى التعب والعرق الغالي والنفيس من أجل أن يوقف الصفوي الفارسي عن إكمال زحفه نحو اسطنبول لاحتلالها، وبالكاد إستطاع أن يقنعه بالعودة إلى بلاده.

واستناداً إلى هذه الحجة فرض حالاً ضرائب باهضة، ناشراً بين رعاياه دعاية مفادها أنه خلصهم من النهب والسلب الذي كان الفارسي يريد أن يجريه عليهم، لولا أنه قدم له الهدايا من خزائنه الخاصة فاسترضاه، فليصبروا قليلاً وليتحملوا، إذ لابد من أن تعود هذه الخزائن فتمتليء، وتكون مستعدة للأوقات الحرجة التي قد تجابههم في المستقبل.

(١) بورسه أو بروسة مدينة في تركية الآسيوية.

ولذلك نشر مرسوماً يدفع بموجبه كل عربي (أظنه يريد بدوي) يدخل المدينة للمعاملات قطعتين من فئة زكينو[1]، وكل صاحب مهنة يدفع نصف ذلك، وكل عامل يدفع الربع، وعلى الطائفة اليهودية أن تقدم ثلاثمائة كيس، وعلى كل من يسكن بغداد أن يتبرع خمسة بالمائة مما يملك، ولا تدخل في هذا الحساب الأشجار المثمرة والنخيل إذ على أصحابها أن يقدموا غرشين[2] Piastra علاوة على الفلسين[3] Soldi التي كانوا يدفعونها كضريبة للمكس.

وكان المسؤول الأول عن جمع هذه الضرائب الجديدة سليمان باشا نسيب الملك، وكان يفرض تأديتها بالقوة.

كنيسة الكلدان:

وأراد هذا السيد الذي كان داهية حقاً أن يصيد عصفورين بحجر

---

(١) ذكر أن هذه اللفظة هي تحريف لكلمة (سكة) العربية، والزكينو نقد من الذهب كان يساوي في البندقية إثني عشر فرنكاً فرنسياً، وفي البلدان الشرقية كان يساوي من ٧-٩ فرنكات، أنظر كوك: بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ٢: ٤٠، العزاوي: تاريخ النقود العراقية، ص ١٣٢.

(٢) يستعمل الرحالة كلمة Piastra التي ترجمناها بكلمة قرش أو غرش.

(٣) سبق شرحها في الهامش ٧٥.

واحد، لأنه بوساطة السيد نزار[1] Nazzar صانع البنادق[2] Armiere في جيش الملك، حثه لكي يقنع الأرمن الأرثوذكس (يدعوهم كعادته ديوسقوريين) وهو من طائفتهم أنه حان الزمن ليفتحوا لهم كنيسة في هذه المدينة حسب طقسهم كما عند الكاثوليك، ولتكن بالذات كنيسة الكلدان التي بقيت فارغة لأن هؤلاء اعتنقوا المذهب الكاثوليكي.

وهكذا من دون أن يعطيني الفرصة لأتصرف أو أناقش هذه المؤامرة نسق مع نزار المذكور فقدم خمسة وعشرين كيساً من أبناء طائفته ولقاء ذلك سيحصل بالتأكيد على كنيسة الكلدان المذكورة، وسلمه بيده زيادة على ذلك مذكرة استنبطها ليقدمها إلى الملك وكانت بهذا المعنى: "لما كان جميع نساطرة بغداد ما عدا ستة أنفار منهم قد قبلوا بمعتقد الأفرنج حتى أنهم صاروا يترددون إلى تلك الكنيسة فقط هاجرين تلك الكنيسة التي كانت ملكاً لهم، بينما الأرمن (الديوسقوريون) الذين ليس لهم محل مخصوص [في

---

(١) نزار أو نزر Nazzar هو اسم مقطوع من نزاريت أي الناصرة حيث عاش السيد المسيح، لأن الأرمن كانوا يتخذون أحياناً أسماء الأراضي المقدسة تبركاً، غير أن اسمه الكامل كان كيورك نزاريت ولربما نزاريتان أو نزران، وتطور هذا الاسم فأصبح مصحفاً بكوك نزر، وقد شاع بين معاصريه حتى أطلق على المحلة التي كان يسكنها في الميدان، أنظر: دليل خارطة بغداد، ص ٢٦١، قال البعض في تفسير اسم كوك نزر أنه من التركية ويعني "ذو العيون الزرق" (مجلة التراث الشعبي ١٩٨٨، عدد٢: ١١٠) والأتراك يقولون لأزرق العين (كوك كوز)، وقالوا إن نزر هو بالأصل لازار، أنظر: عبود الشالجي: الكنايات العامة البغدادية بيروت ١٩٧٩، ص ٧٩ وهو اجتهاد لا سند له.

(٢) صانع البنادق Armiere وترجمها الباحث دير نرسيس صائغيان بكلمة سلحدار، تاريخ كنائس الطائفة الكلدانية في بغداد، مجلة النور ٢، (١٩٥١) ص ٢٣.

بغداد] لكي يقيموا فيه الصلاة.

يسترحمون جلالتكم أن تنعموا عليهم بالكنيسة المذكورة المهملة من قبل الكلدان.

وعوضاً عن ذلك فإنهم ملزمون بتقديم خمسة وعشرين كيساً لأجل نفقات مطبخ جلالتكم وهم يقبلون أقدامكم".

وسعى صانع البنادق لكي يصل هذا الالتماس حالاً إلى يد الملك الذي حوله إلى سليمان باشا ليبت في الأمر.

فهذا أظهر نفسه كأنه يجهل المشكلة، بينما كان بالحقيقة هو صاحب هذا الاسترحام.

فأسرع ودعا الكلدان: الهراطقة[1] منهم [أي النساطرة] والكاثوليك ووجه إليهم السؤال التالي بأسلوب مخادع: بأي حق حصلتم على كنيسة في المدينة طالما القسم الأعظم منكم قد تركها بعد أن اغتصبتموها خلافاً للعدل منذ سنين كثيرة من الطائفة الأرمنية؟"

فاستغرب هؤلاء من ذلك، وهم وإن كانوا مختلفين فيما بينهم، أسرعوا يدافعون عن حقهم مقدمين الوثائق والأوراق المتبعثرة التي تسند أحقيتهم فحملوها إلى الباشا الذي لم يكتف بها بل طلب أيضاً مفاتيح الكنيسة قائلاً لهم: "دعوني أدرس الوثائق وسأدعوكم ثانية" ثم صرفهم.

إستدعى الباشا رجال الأرمن وأمرهم بالحضور وفرض عليهم أن

(١) الهرطقة والهرطوقي (يونانية) تعني البدعة في الدين فيطلقها الواحد على من ليس من مذهبه وهنا يطلقها المؤلف على النساطرة.

يسددوا مبلغ ٢٥ كيساً وسلمهم مفاتيح الكنيسة، فذهبوا واستولوا عليها حالاً.

انتشر الخبر بين أبناء الطائفة الكلدانيين فاجتمعوا سوية الكلدان منهم والنساطرة وجاؤا عندي يتشكون من الحال قائلين إنه بسببكم حصل لهم فقدان تلك الكنيسة إذ لو لم يتحول القسم الأكبر منهم إلى المذهب الكاثوليكي لما حدث لطائفتهم ما حدث.

تألمت جداً لهذا الكلام وحاولت تهدئة الحاضرين على قدر الإمكان واعداً إياهم ببذل قصارى جهدي لاسترجاع المفاتيح، لكن من الضروري أن يحاول كل منهم أن يشترك بتقديم بعض المال، إذ كنت أتصور أنه لابد من إعداد ذلك نظراً للحاجة التي كان يبديها الملك لجمع المال.

ذهب الكلدان من عندي فجاء الأرمن الكاثوليك لرؤيتي وقالوا لي: إن كان أبناء طائفتهم سيبقون متملكين هذه الكنيسة، فإنهم سوف يجبرونهم على اعتناق مذهبهم لأنهم كانوا أكثر عدداً.

وسوف يكونوا مضطرين لدفع قسم كبير من الأكياس الخمسة والعشرين الموعودة للباشا، وبهذه الحال عليهم أن يجمعوا ثمانية أكياس.

وكنت قد وعدت بمساعدة الكلدان لكي يسترجعوا كنيستهم، فتعهدت هؤلاء أيضاً بدعمهم معتقداً بأني حاصل بيدي المال اللازم الذي يكفي للتغلب على كل هذه الصعوبات.

في اليوم التالي عندما ذهبت لزيارة الملك، حاولت أن التقي بسليمان باشا فسلمت عليه بلا رسميات، وأبدى لي استعداده للدخول إلى الديوان لمفاتحة الملك بخصوص النساطرة، واستوقفني قائلاً: "إني أعلم بأنك تريد

أن تفاتح الملك بخصوص كنيسة الكلدان، لكنك بدوني لا تستطيع أن تفعل شيئاً لأني حذرت الملك إذا تدخل بهذه المسألة فإني سأسحب يدي منها، ولن أتدخل أن نشبت فتنة في المدينة، إذ الناس كلهم يتحملون الضرائب الكثيرة ما عداكم أنتم النصارى إذ تدعون بأنكم لا تملكون شيئاً بينما بيوتكم عامرة".

هذه الكلمات الأخيرة جرحتني وجمدتني إزاء حملة ثقيلة (لجمع المال) لذلك اجبته: "إني أعلم جيداً أن من واجب سكان بغداد جميعهم أن يؤدوا المال للملك، ولا يستثنى من ذلك النصارى، لكن ما يؤسفني أن يجرد الكلدان مما عندهم من دون سبب وضد كل العادات، ومع ذلك ورغبة مني بأن لا أقصر وبصورة أخص مع الملك أرجو أن تعيد كنيسة الكلدان إلى أصحابها وأن تقبل أن تأخذ من المال ما أخذته سابقاً من الأرمن عندما انتزعتها من أصحابها".

كان الرجل بالحقيقة قد أضمر في قلبه أن ينتزع من الكلدان ثلاثين كيساً ليعيد لهم الملكية على الكنيسة، وأن يعطي للأرمن موضعاً آخر يبنون عليه كنيسة لهم، فارضيته بخمسة وعشرين كيساً وبقينا متفقين على هذا المبلغ، فعدت إلى البيت.

وتحمسنا أنا وزميلي الأب فيديل لكي يشترك كل الكلدان بالدفع فيعطي كل واحد ما باستطاعته لنجمع المبلغ موضوع الوعد للتخلص من هذه الضريبة الجائرة.

بعد ذلك أجرينا الحساب فرأينا أنه تنقصنا ستة أكياس.

ولذلك عمدت في الأحد التالي أن أشرح المشكلة برمتها للحاضرين،

فتكلمت بعد قراءة الإنجيل وطلبت من كل المسيحيين أن يشتركوا بهذا العمل الخيري، فتبرعوا بكيسين.

لكن كبار النساطرة عاندوا ورفضوا إكمال المبلغ، فوجدت نفسي في حيرة إن لم أتمم وعدي لسليمان باشا، ولذلك رأيت ـ من أجل التخلص من الوعد بنزاهة ـ أن أتظاهر بحاجتي للذهاب إلى همدان للحصول على أشياء ضرورية لشخص علي بك.

فحصلت على الإذن من الملك، وبلغت أخته طالباً منها أن تسوي الأمور بالتي أحسن بحيث لا يتم في غيابي أي شيء يضر بمصلحة جماعتي.

وإن علمت بحدوث أي شيء في غيابي يضر بصالحهم فإني لن أعود إلى بغداد.

لقد فكرت أن أضع سليمان باشا إزاء السيدة أخت الملك وكذلك النسيب والحفيد (أبن الأخت) علي بك الذي وقف إلى جانبي أكثر من مرة.فبعثت السيدة آسيا أفندي Assia لتخبرني بأن زوجها محمد باشا هو حالياً في اسطنبول لكنها طمأنتني بأنه لن يلحق بالمسيحيين أي أذى في غيابي.وعلى هذا الأساس رحلت من بغداد وأنا أحمل جوازات السفر الضرورية وكتب توصيات من الملك إلى خان همدان مع بيورلدي خاص لكي يرافقني من قرية إلى أخرى ثمانية رجال بكامل سلاحهم.

ومن أجل مزيد من الحماية اصطحبت حارسي الانكشاري الخاص مع خادمين آخرين.

سفر خطر إلى همدان:

وبينما كنت أسير فكرت في نفسي بخطة العودة إلى أوربا عن طريق موسكو، إذ كنت أعلم بأن المشكلة في بغداد لن تنته على خير بالنسبة إلى جماعتي المسيحية، ومهما يكن من أمر فقد استمريت في طريقي نحو بلاد فارس مع خدامي.

وحدث أنه بعد مسيرة أربعة أيام من بغداد في أرض قاحلة بدأت تنتابني أفكار متشائمة بخصوص مصير جماعتي المسكينة.

وفجأة نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وإذ كنا نمر في موقع بين تلين عامرين بالأشجار هب نسيم لطيف ارتحت إليه لأنه في الأيام السابقة كان المناخ حاراً، وإذا بي أسمع صراخ الانكشاري يخبرني بأن قطاع الطرق قد باغتونا، ولذلك عمد إلى إطلاق النار عليهم.

كان الطريق ضيقاً جداً، وبالكاد نسير فيه، وكنت أمعن النظر لكي اكتشف موقع أولئك المهاجمين، وإذا بطلقة نار تنطلق وأرى خادمي (جوفاني) يسقط من على حصانه عن يميني، ولم يتأخر الانكشاري عن تسديد ناره نحو الجهة التي جاءت منها الإطلاقات.

وأما أنا فقد كنت مذهولاً وقد وجدت نفسي في مكان مرتفع ولا أعلم كيف وصلت إليه أكان بسبب الخوف أو أن الحصان سار بي إلى هناك.

المهم أني كنت معرضاً للخطر من جميع الجهات، وفي الحال أنزلت قدمي إلى الأرض وقد تملكني الخوف فزحفت على الأرض واختبأت وراء بعض الأشجار التي كانت قائمة على ضفة جدول كان يجري في

تلك الأطراف.

في تلك اللحظات تراءى لي أن الله أراد أن يقاصحني برحمة ويدعوني بلطف كي أغير سيري.

ولذلك عزمت عزماً ثابتاً أن أعود إلى بغداد لأقف مهما كلفني الأمر إلى جانب جماعتي.

وأنصت بكل جوارحي لاكتشف الموقف الذي أنا فيه، فسمعت ثم اكتشفت الانكشاري وهو يبحث عني باجتهاد، فتشجعت وامتطيت الحصان من جديد وشرعنا كلانا نركض دون أن نعرف إلى أين نحن نتوجه!

بعد قليل وجدنا أنفسنا في مستنقع مليء بطحالب وقصب حيث لا يستطيع الحصان السير، لذا نزلنا عنه وحاولنا السير قليلاً فلم نستطع عندئذ اخترنا طريقاً آخر.

درنا كثيراً حول ذلك المكان إلى أن ظهرت أنوار الفجر فاكتشفنا أننا بقرب القرية التي تركناها في اليوم السابق، فأخذ مرافقي الانكشاري يطلق في الهواء طلقات من مسدسه كإشارة لحاجتنا إلى العون، فهرع إلينا حالاً رجال مسلحون من القرية واسمها شهربان[١]، وأخذونا إلى بيت رئيس القرية، وإذ علم بأني طبيب الملك فقد أبدى نحوي كل الأكرام الممكن، وأرسل في الحال رجالاً مسلحين إلى المكان الذي حصل فيه الهجوم، فوجدوا دليلنا المسكين مصاباً أصابة قاتلة، وكان على وشك الموت، وكذلك خادمنا وقد عروه من كل شيء وجرحوه.

---

(١) بلدة تابعة لمحافظة ديالى تسمى اليوم المقدادية.

لكنهم لم يجدوا قطاع الطريق الذين سببوا لنا كل هذا العذاب.

العودة إلى بغداد:

في اليوم التالي قررت العودة إلى بغداد، وعندما وصلت قدم كثيرون لتهنئتي بسلامة عودتي، إذ كان قد انتشر بين الناس خبر مفاده أنني قتلت في الطريق.

وأراد الملك أن أحضر حالاً لأروي له ما حدث لنا، وعاتبني لأنني لم استخدم الرجال الذين عينهم لحراستي.

عندئذ أمر سليمان باشا أن يسعى حالاً لإلقاء القبض على اللصوص وأن يقاصص القرى القريبة في ذلك الطريق لعدم سهرهم على الطرق كما هو واجبهم.

عندما عدت إلى البيت أصابتني حمى قوية، تطورت إلى ملاريا خفيفة لم استطع التخلص منها بسرعة كما كنت أتمنى، لأعوض عن الضرر الذي كان يصيب المسيحيين باستمرار من قبل الباشا وصانع البنادق (نزر)، اللذين لم يكتفيا بتجريد الكلدان من كنيستهم، بل اضافوا تهمة أخرى وهي أن المسيحيين[1]، قد جعلوا الكثيرين أفرنجاً وهم من طوائف أو طقوس أخرى، وغاية كل ذلك هي سحب كميات جديدة من المال منهم.

وكانوا قد عرضوا على الملك مذكرة جديدة خلاصتها أن الأرمن على

---

(١) إنتشر هذا التعبير في ذلك العهد ليشير إلى المشارقة (النساطرة) المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية ياسين العمري: زبدة الآثار الجلية، ص ١٤٧: نصري: ذخيرة الأذهان ٢: ٣٧٤.

أتم الاستعداد لأن يقدموا مئة كيس للخزينة الملكية إذا ما جردنا من الكنيسة المذكورة وأعطاها لهم.

ويظهر أن الملك كان ميالاً إلى منحها لهم وفي فكره أن الأفضل من أجل راحته أن يعطي لنا بيتاً أقرب موقعاً إلى السراي لأكون حاضراً لخدمته دوماً.

لقد أخبروني بكل ذلك ولاحظت سوء نية القوم في هذه المسألة وتوقعت الأسوأ إذ قد يهان بيتنا ويكبس، لذلك جمعت الأغراض الثمينة من الكنيسة كالفضيات وأخرجتها من البيت.

ولما ذهبت إلى السراي محاولاً الاستفسار من أصدقائي الموظفين: ماذا كانوا يحوكون ضدي في الخفاء؟

فسمعت أخباراً مختلفة كثيرة خاصة من مأمور الخزينة الذي قال لي بصريح العبارة: "تأكد أيها الأب أن لا خوف عليك، ولكني أنصحك بأن تتمسك بالصبر إذ أنهم هنا يريدون المال حتماً من المسيحيين التابعين لك، وهؤلاء يعتمدون عليك وعلى طيبة الملك التي يظهرها نحوك، وهم إن لم يروك في ظرف صعب فلن يجمعوا المبلغ المطلوب، وقد كنت حاضراً عندما اقترح سليمان باشا على الملك بأن يكبلك بالسلاسل ويرميك في السجن إذ لا توجد طريقة أخرى [لجمع المال]".

لكن الملك لم يسمح بذلك أي الحاق الأذى بشخصك، لذلك أنصحك أن تنتبه لنفسك ولا تهتم بشؤون غيرك التي لا طائل من ورائها".

وبالفعل فإن سليمان باشا أرسل يستدعيني من البيت، لكني لم أكن هناك، والتقى بي الرجل مبعوث الباشا صدفة في الطريق وأنا راجع إلى

البيت فبلغني الرسالة.

فذهبت ملبياً الدعوة على الرغم من أني لم أكن بحال صحية جيدة، لكني أردت أن أسمع منه مباشرة ماذا يريد مني.

بادرني السؤال ـ وكأنه لا يعرفني ـ من أذِنَ لك أن تفتح كنيسة في بغداد وكان يؤمها ليس فقط الأفرنج بل أشخاص آخرون من طوائف غير أوربية؟

عندئذ أجبته دون تردد بأني فتحتها بأمر حميك الملك وبإذنك كما يشهد على ذلك أمين جاويش ciausc-Amin الذي جاء قبل خمس سنوات حاملاً الأمر السامي بفتح الكنيسة وأن من يمانع ذلك أو يلحق بي أذى يعرض نفسه لعقاب الموت.

فعندما سمع هذا الجواب عاملني كما يعامل الكلب فصرخ: "إذهب واعلم بأنك الآن مغضوب عليك من قبل الملك ومني وعليك من الآن فصاعداً أن تطيع لا أكثر!".

إزاء صراخه شعرت بقشعريرة فارتفعت الحرارة في جسمي، وهذا التهديد جعلني أنزوي أياماً. لكني عندما عدت إلى البيت رأيت رجلين من أغنياء اليهود كانا صرافين للملك، فأبديا أسفهما لما اتعرض له من الضغوط، ونبهاني إلى أنه بعد قليل سوف يأتي القاضي والميري[1] ليطرداني من البيت ويضعا اليد عليه باسم الملك. فأسرعت بإخراج الحاجيات الخصوصية التي اعتبرتها ضرورية لي ولرفاقي، وبدأت أرفع من معنويات

---

(١) أي المسؤول عن بيت المال أو موظف الضريبة كما سيذكر المؤلف بعد أسطر.

جماعتي، وهم بدورهم حثوني لكي أسلم أمري لإرادة الله. وإذ نحن هكذا إذا بنائب القاضي يحضر عندنا ومعه موظف الضريبة، وبلغاني أن أترك البيت مع كل من كان يسكن فيه، وأن أبعد الحيوانات، فقد صدر إليه أمر بأن يغلق البيت ويختم الأبواب.

أطعنا الأوامر في الحال، وجرى بحضورنا غلق باب الكنيسة ووضع الأختام عليها ثم الغرف الأخرى وأخيراً الباب الرئيس الذي يؤدي إلى الطريق حيث تركوا إثني عشر جندياً للحراسة.أما نحن فقد التجأنا إلى بيت صغير وتبعنا الانكشاري الذي كانت حالة يرثى لها فقد أصيب بحمى.وكان المكان الذي التجأنا إليه ضيقاً جداً، لكنه نظراً إلى تلك الظروف الصعبة فقد كان أفضل ما نحتاج إليه؛ لأن عدداً كبيراً من المسيحيين كان قد ألقي القبض عليهم ولم يبق في البيوت غير النساء وهن بحال يرثى لها.

وكان بينهن من حركته الرحمة نحونا فجئن لتفقدنا أو لحمل الطعام والالحفة إلينا في تلك الليلة التعيسة التي لم يستطع أحد أن يغمض عينيه.

وعند الصباح أردت أن أذهب إلى السجن حيث أودعت السلطة أربعة وأربعين شخصاً من كبار المسيحيين وكانوا مطوقين بالسلاسل حول أعناقهم كالمجرمين واللصوص، فحاولوا النهوض عند دخولي ليرحبوا بي، فملأوا المكان ضجيجاً بالسلاسل التي كانت تربطهم، بينما سببوا لي ألماً لا يوصف حتى ظننت أن قلبي سيتفطر في صدري، إذ لم يكن باستطاعتي أن أخفف من المهم فقلت لهم معزياً بأن الله يريد أن يعاقبني لتقصيري، وأطلب منكم أن تصلوا لعلي أستطيع أن أفعل شيئاً لأجل خلاصكم بأسرع وقت.

ولم نستطع أن نكمل الحديث لأن الدموع بدأت تنهمر من عيوننا جميعاً فتمنعنا عن الكلام.تركت السجن وتوجهت حالاً إلى القصر وقد قررت أن أقابل الملك لأسأله: ما ذنوبنا، وما جرائمنا التي استحقت كل هذه العقوبات العلنية؟

عندما حاولت أن أدخل إلى الديوان منعني الحراس، ولم يسمحوا لي بالدخول فكانت هذه ضربة جديدة جرحتني جداً في أعماقي وعلى الرغم من ذلك تحاملت على نفسي وذهبت من جديد عند مأمور الخزينة لأفرغ ما في قلبي من مرارة وأخبره بأني مزمع أن أبيع كل ما أملك، لكي افتدي أولئك المسيحيين المساكين الذين كانوا أصحاب عوائل كثيرة، ثم أترك بغداد بعد ذلك ولن أعود أليها أبداً.كان هذا الرجل يود خاطري حقيقة، فصار يكرر عليّ بأن الملك ليس ضدك أبداً، لا بل أمر رجاله أن يبحثوا عن بيت أفضل من ذاك الذي كنت أسكنه، وأن تشيد فيه على نفقته كنيسة أكبر وأجمل لراحة جماعتك، لكنه يطلب منهم ويرضى بمبلغ عادل من المال يرضي أولئك الذين اشتكوا أمامه علينا، وفي الوقت نفسه لكي نكون بالقرب منه.

وأكد بعد ذلك لطمأنتي بأن أبواب بيتنا سوف لن تفتح ولن ترفع عنها الأختام إلا بحضوري، وأما مصاريف الضريبة فإن الأغراض الباقية في البيت كافية لوفائها.

شكرته على هذه الأخبار التي عوض أن تعزيني ملأتني كآبة، إذ رأيت جيداً بأن الملك له غاية في كل ما يجري هي منفعته الخاصة، وليس لتحقيق العدل أو لرفع معنويات من شعور القنوط الذي كنت أعيشه وهو مطلع عليه لأني كنت شبه مضطهد.

خرجت من هناك وأنا أحاول على قدر الإمكان إخفاء إضطرابي، فتوجهت إلى بيت المسؤول عن الكمرك واسمه علي أفندي، معتقداً بأن الرجل الذي أظهر نحوي احتراماً في مناسبات كثيرة قادر على أن يساعدني عند سليمان باشا، لأنه كان من أخلص أصدقائه، وهذا الرجل الذي لا مثيل له بين الأتراك بالفطنة والاعتدال، ما إن رآني حتى امتقع لونه ولم يستطع إخفاء شعوره بعدم ترحيبه بقدومي.

لذلك ساورني الشك حالاً بأن زيارتي لم تكن مرغوبة من الرجل لأنه لا يريد أن يحرج بمشكلتي، لذلك بادرته قائلاً: " لا أريد أن ألحق بك ضرراً يا سيدي بسبب زيارتي، ولا لكي تتعهد من أجلي أو من أجل جماعتي المسيحية إذ أعلم جيداً أن واحداً بمستواك لا تسمح له ظروفه أن يقف إلى جانب من حل عليهم غضب الملك بسبب المال.

جئتك فقط لعلمي بأني فقدت ثقة الملك لا لخطأ صدر عني ولكن من قبل جماعتي إذ أن دمهم الثاني مطلوب والدم الثاني كما تعلم هو أموالهم.

فأنت يا سيدي كنت يوم أمس في ديوان الكهية باشا، أفتقدر أن تخبرني عن المبلغ الذي يدعي به، لأني أشك أنهم يطالبون بكمية مبالغ بها أي فوق طاقتهم، لكي نطرد بمثل هذه الحجة كلنا بذلٍ من المدينة، ومن ثم يقنعون سائر الناس بأننا شعب متمرد يبحث عن المشاكل".

رثا الرجل عند ذاك لحالي وأكد ما قال لي أمين الخزينة.

وأضاف بأنه كان حاضراً عندما منع الملك من إلقاء القبض عليّ أو على أحد رفاقي (الرهبان)، لا بل أظهر أسفه من تقديم الأرمن مئة كيس من أجل وضع اليد على كنيستنا، وأنه يريد أن أكون أقرب إلى السراي لذلك

فإنه قد أمر بان يعد لي بيت كان مسكن سكرتيره وهو أوسع من بيتنا السابق وفيه مجال للتوسع وفيه فناء مريح يمكن أن تبنى في وسطه كنيسة تحت أنظاري وحسب ذوقي.

شكرته ورجوته أن يقف إلى جانبي في هذا الوقت الصعب حتى ظننت أن كل ساعة تمر هي بمعدل ألف سنة من التعب.

إستأذنته وخرجت وكنت بالكاد أتحامل على نفسي، ولذلك دخلت في أول بيت مسيحي كان في تلك المنطقة وأردت أن أرتاح هناك قليلاً، لكن ذلك كان مستحيلاً؛ لان نفسي كانت قلقة، وأفكار كثيرة كانت تدور في ذهني: فمن جهة كنت أرى أن الإقتراح السابق هو من مصلحتنا، إذ أن الموقع المقترح هو في وسط المدينة، لا بل في أفضل مكان فيها وتحت أنظار الملك، ومن جهة أخرى إن أهملت المطالبة بالكنيسة فسوف يرفع الأرمن مئة كيس للخزينة وهذا ليس بالمبلغ القليل ولا سيما أنهم سبق أن دفعوا خمسة وعشرين كيساً.

كذلك إذا تنازلت عن الكنيسة للأرمن [الارثوذكس] فسوف تقوى شوكتهم، وسوف يجبرون أبناء طائفتهم الكاثوليك لكي يدفعوا القسم الأكبر، ولذلك رأيت أن أسعى بكل وسيلة لأمنع ذلك المخطط.

عندئذ قررت أن أكلف سيدة متقدمة بالسن كانت تسكن في ذلك البيت فأرسلها إلى سيدة اسطنبولية سكنت في بغداد منذ زمن، طالباً منها أن تذهب إلى السراي وتعرض حالي على خانم أفندي لكي تتوسط عني لدى أخيها الملك فينقذني من هذه المصيبة الثقيلة.

فما أن سمعت السيدة الاسطنبولية الطلب حتى تحمست ونقلت إلى

أخت الملك خبراً لا أعلم هل هو من شفقتها عليّ أو لعدم فهمها للمهمة، إذ قالت لسيدة القصر أني بسبب ما أصابني من الآلآم من قبل سليمان باشا ومن صانع البنادق [السلاحدار] نزر إذ قيدت بالحديد فأصبت بارتفاع الحرارة وشرعت اتقيأ دماً!..

فلما سمعت السيدة خانم أفندي هذه الرواية مزقت ثيابها على عادة أهل البلاد تعبيراً عن الأسف الشديد ودعت خادمها وكتبت بيدها على بطاقة إلى أخيها أحمد، قالت فيها: "إن كنت قد نسيت العلاج الذي قام به الأب الحكيم في الحرم، وإن كان ذلك الظالم سليمان قد نسي ما قام به الحكيم نحو ابنته، فأنا لا أنسى ما فعل لأجلي ولأجل ابنتي وجميع من يلوذ بي وهم أحفادك.

تصور قليلاً كم هو المي عند سماعي أن هذا البريء وأنت مطلع على براءته، هو الآن في حال خطرة إذ يتقيأ دماً، وهو مقيد بالسلاسل حاله حال الكلب!

ولذلك فإني أقول لك واستحلفك بالقرآن [الكريم] بأن عيناي لن تغمضان، ولن أتناول طعاماً، ولا يدخل الشراب في فمي قبل أن أتأكد من إعادة البيت إلى الأب الحكيم وكذلك الكنيسة كما كانت سابقاً" (التوقيع) أختك الخانم.

طوت الورقة وسلمتها إلى الخادم وطلبت منه أن يحملها في الحال إلى أخيها ويسلمها له يداً بيد.

وكان الملك عند ذاك جالساً في فناء القصر يتناول بعض المرطبات مع كبار الدولة.

فألقى نظرة على البطاقة ثم قال: "هل بينكم من رأى الحكيم في ذلك اليوم؟".

فقالوا: إنه حضر إلى الديوان صباح ذلك اليوم، ولكن نظراً للأوامر الصادرة منك لم يسمح له بالدخول فعاد من حيث أتى وبعد ذلك لم يره أحد.

فأرسل إلى الحبس من يسأل إن كنت حقاً محبوسا وَمقيداً، فذهب الجوخدار وعاد يقول بأن الأب كان هناك صباح ذلك اليوم فكلم الموقوفين المسيحيين، ثم خرج وهو يبكي.

أعاد الملك قراءة البطاقة المرسلة من قبل اخته ثم أمر ضابطين أن يبحثا عني حالاً ويعيداني إلى مسكني.

ففعلا، وهناك ألقيا نظرة على الأختام وتركاني بسلام مع رفاقي وعادا إلى القصر ليخبرا الملك بما فعلا، فكتب إلى اخته الجواب التالي: (كلي وأشربي ونامي أيضاً لأن الأب الحكيم هو حر وقد استرجع بيته وكنيسته).

عندما دخلت أنا ورفاقي إلى البيت توجهنا إلى الكنيسة لنرفع آيات الشكر لله من أعماق قلوبنا، ثم أوصلنا الخبر إلى المسجونين، بأن الفرج قد قرب وسوف يستعيدون حريتهم عاجلاً.

كانت الساعة تقارب الواحدة ليلاً وبقي سيل الزوار المحبين من مسلمين ويهود ومسيحيين الذين حافظوا على صداقتهم معنا على الرغم من تلك الظروف يأتون لتقديم التهاني لنا لرجوعنا إلى بيتنا.

ومن جملة من زارني في ذلك اليوم آغا البلاط ليبلغني أمر الملك بأن

أحضر في اليوم التالي منذ الصباح الباكر عند سليمان باشا ، إذ أنه يريد أن يخبرني بأن كل ما حدث لي ولرفاقي لم يكن بمعرفة الملك، وبأني لا أزال محافظاً على مكانتي في نظر الملك ونظره هو شخصياً ، ففرحنا وهنأ أحدنا الآخر وقضينا ما بقي من الليل بسلام.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن أتممت الواجبات الدينية ذهبت أولاً لزيارة جماعتي وطمأنتهم وشجعتهم ليتحملوا ما هم عليه مدة أخرى حتى ينجلي الظلام، لأني على وشك أن أذهب عند سليمان باشا فأفاتحه بكل الأمور وجهاً لوجه.

كانوا مجتمعين في غرفة صغيرة عرضها ثمانية أقدام وطولها ثلاثون، وكانوا جالسين على الأرض مقيدين بالسلاسل تصل نهاياتها إلى حلقة غليظة مثبتة في الجدار، وكانت حلقات أخرى ـ أي أطواق ـ من حديد حول أعناقهم.

وبإمكان القاريء أن يتصور عظم فرح هؤلاء الرجال عند سماعهم هذه الأخبار.

لقد أعطوني بالحقيقة مثالاً صالحاً بتقبلهم هذه الآلآم.

وكان يحثهم على الثبات القسيس الكلداني الأب مقصود(١) الذي ترك المذهب النسطوري قبل مدة قصيرة وكان في مقدمة الذين دخلوا إلى السجن وتقبل السلاسل.

---

(١) القس مقصود الموصلي خدم في بغداد وتوفي ١٧ تموز ١٧٦٥ ، أنظر: بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، ص ١٥٥.

خرجت من السجن ومضيت لمقابلة سليمان باشا الذي استقبلني بحفاوة بالغة، وأجلسني إلى جانبه وأمر بتقديم القهوة، وأراد أن يشرب القهوة معي علامة الصداقة.

ثم سألني إن كنت وجدت البيت كما كان وبكل الأغراض التي كانت فيه: فأجبته بالإيجاب.

فأردف: " فمن الآن وصاعداً سنكون أصدقاء ولا خلاف بيننا، ولكن عليك أن تمنع اعتبار أبناء الطوائف الأخرى إفرنجاً وتكتفي باستقبال الأوربيين فقط في كنيستك".

فأجبته: "إنك تعرف جيداً ما هو مسموح لي وما هو ممنوع عليّ من خلال القوانين التي لم أخالفها يوماً في حياتي، ولا نية لي أن أخالفها الآن.

وكرجل شريف أعتز بكرامتي فإني أعدك بأن التزم دائماً بالقوانين" ثم أضفت: "إنك يا سيدي تطلب للخزينة الملكية ثلاثمائة كيس من المسيحيين، فأنا أوكد لك إنك لو وضعتهم كلهم مع مقتنياتهم في عمبيق فلن تستقطر منهم جزءاً واحداً من مئة!".

فلاحظت فيه ميلاً للتفاهم، وكدنا نتفق لو لا أن دخل علينا موظف كبير أراد أن يختلي مع الباشا ليتباحثا بأمور الدولة.

في ذلك اليوم سويت الأمور، فقد جاء الكهية بعد الظهر إلى السجن وأطلق سراح كل المسيحيين الموقوفين، وأنذرهم بوجوب تقديم خمسين كيساً فقط في ظرف ثمانية أيام.

عندما سمع (نزر) الأرمني بأن علاقتي مع سليمان قد تحسنت بتدخل

مباشر من الملك، هرع إلى النهر ليرمي نفسه فيه خوفاً من أن أنتقم منه.

لكن الأرمن أوقفوه ومنعوه عن فعل ذلك، وأقنعوه بأني لن ألحق به أي ضرر نظراً لحالي الرهبانية فاقتنع بذلك، ثم عاد وتجبر بحيث أنه في أحد الأيام ـ وكان عيد ـ أجبر بعض الأرمن الكاثوليك على أن يذهبوا إلى كنيسته.

وتوقف لاحقاً عن تكرار ذلك عندما علم بأن الملك خولني أن أضرب بالطبوس[١] Topuz هو وأمثاله ممن يقومون بمثل هذه الأعمال.

في شهر أيلول ١٧٤٤ أُرسل سليمان باشا في حملة ضد الأعراب الذين ثاروا على رؤوسائهم لا لشيء إلا لأنهم خضعوا للملك بغداد.

وفي تلك الأيام توفي رجل أرمني كاثوليكي اسمه قره يعقوب فرفض الأرمن (الأرثوذكس) القيام بدفنه، فتدخلت في الأمر بمساعدة آغا الانكشاريين الذين لا يقدرون رفض أوامره، فأكملوا المراسيم الدينية.

وانتظروا عودة سليمان باشا فما أن رجع حتى ذهبوا واشتكوا عليّ بوساطة (نزر) نفسه مقدمين تقريراً ضدي مفاده أني أجبرتهم على دفن رجل أرمني كان قبل وفاته قد ترك مقتناه لكنيستهم، لكن تاجراً كاثوليكياً استولى على كل الإرث الذي هو من حقهم، وأنهم يتنازلون عنه طوعياً للمطبخ الملكي.

رفض سليمان قبول الشكاية المرفوعة ضدي لكنه صادر في الحال أرث

---

(١) طبوس: عصا غليظة طولها ذراع تقريباً رأسها مكور بقطعة كروية من القير الجامد ولذا تسمى في الجنوب مكوار، د. حازم البكري: دراسات في الألفاظ العامية الموصلية، بغداد ١٩٧٢، ص ٣١٧.

المتوفى الذي مات دون عقب، على الرغم من أن التاجر الكاثوليكي عرض عليه حجة صادرة عن القاضي يؤيد فيها أنه حصل على البيت لقاء دين إستقرضه منه الرجل المتوفى.

فبلغوني بالحادث، لكني لم أرد قطع الجسور مع الباشا فانتظرت زمناً أفضل لأساعد ذلك التاجر الفقير الذي كان صاحب عائلة كبيرة وكانت ظروفه المالية سيئة للغاية حتى أصبح في حال استجداء الصدقة.

ولم تتحسن ظروفه إلا بعد أن نجحت في إعادة البيت إليه كما سأذكر ذلك لاحقاً.

زيارة

كانت السيدة الملكة أي زوج الملك الأولى التي عالجتها قبل خمس سنوات وشفيت علمت في تلك الأيام ولو متأخراً بالمشاكل التي مررت بها، ولم أعلم من الذي أوصل إليها هذه الأخبار. . . وفي أحد الأيام إذ كنت جالساً إلى مائدة الطعام لتناول الغداء مع رفاقي الرهبان، جاء الخادم ليخبرني أن بعض السيدات المسلمات قد دخلن بيتنا وهن واقفات في الحوش يطلبن مقابلتي والحديث معي مرسلات من قبل الملكة.

وقد استغربنا كلنا لهذه الزيارة غير المتوقعة.

فهرعت حالاً لأرى ماذا يردن مني، فقالت إحداهن لي: إن السيدة التي عالجتها قبل سنوات من ورم في عنقها، علمت الآن ولو متأخراً بما أصابك، ولذلك أرسلتني لأبلغك إن كنت تحتاج إلى أي شيء منها أو من الملك فبلغها في الحال وسوف تسعى لإرضائك، وتريد أن تعرف منك

أسماء الأشخاص الذين يلحقون بك الأذى لكي ترسل لك رؤوسهم هذا المساء كهدية!

لقد أفزعتني هذه الرسالة، وشككت بعض الشيء فيها لكني أخفيت مشاعري، وأجبت قائلاً: "إني ما فعلت إلا واجبي، وأما بخصوص إبلاغها بالأسماء فرجوتها أن تقول للسيدة بأن شريعتي تفرض علي أن أحب أعدائي وأن أحسن إلى من يبغضني ويضطهدني"[1].

وفي اليوم التالي جاءت النسوة في الساعة نفسها ليكررن عليّ رسالة الأمس وكان جوابي هو هو، فخرجن من بيتنا، بينما كانت إحداهن تقول لي: "إنك لا تعرف أن تستغل الفرص، وأنت سبب الأذى الذي أصابك)!.

بعد مرور ثلاثة أيام على عودتنا إلى بيتنا دعيت إلى السراي نحو الساعة الثالثة ليلاً، فأسرعت ولبست ثيابي وخرجت من الدار فرأيت عند الباب الخارجي في الطريق حصاناً وأربعة حراس من حاملي المشاعل لمرافقتي.

كان ذلك في شهر رمضان أي زمن الصوم الذي تنار فيه الطرق عادة، فمررنا بالسوق حيث تباع أنواع البضائع، فرأيت هناك أربعة حراس آخرين وحاملي مشاعل كانوا متوجهين نحونا، وسمعت أولئك الرجال الذين على ما يظهر كانوا يعرفونني يقول أحدهم للآخر: أنظر القسيس الحكيم يقاد إلى الحبس! ولم أعلم ماذا أصدق.

فمن جهة أرى ثمانية حراس يحيطون بي، ومن جهة أخرى فكرت في نفسي: إذا كانوا يريدون أن يحبسوني فلماذا أرسلوا إلى حصاناً مطهماً؟

---

(١) انجيل متى: ٥: ٤٤.

لذلك قلت في نفسي إنهم يريدوني لأمر ما...

دخلت إلى السراي فنزلت عن الحصان، فجاء لاستقبالي عند السلم المصرف ومدّ إليّ ذراعه ليساعدني على صعود الدرج، وهذا ما لا يفعله الأتراك إلا عندما يريدون أن يظهروا احتراماً كبيراً للزائر.

فسألته: "ما السبب الذي من أجله بعثتم في طلبي"؟

قال: "إن سليمان باشا مريض جداً وإن الملك أمر بأن لا يعالجه أحد سواك".

وعندئذ أدخلوني على المريض فإذا به مصاب بحمى قوية مصاحبة بالآم مبرحة في الغدد اللعابية التي كانت ملتهبة.

ورأيت كدمات في رأسه ورضوض في كتفيه.

والحقيقة التي لم يرد أن يعترف بها لكني عرفتها من آخرين، هي أن الملك اكتشف بأنه تعاون مع اليهود فهرب ثلاثين جندياً من حملة البيارق، وأنه خنق (المصرف) السابق لقاء ثلاثمائة كيس كما ذكرنا آنفاً.

وعندما علم الملك بذلك غضب جداً فضربه ضرباً مبرحاً بالطبوس تارة على رأسه وتارة أخرى على كتفيه بحيث وصل إلى هذه الحال من الحمى العالية.

كل هذه الأمور لم أكن أعلمها في ذلك الوقت، وهو لم يشأ أن يخبرني عن سبب حاله، لكني بدأت حالاً بإعطائه بعض الأدوية ووعدته بأن أعود لزيارته صباح اليوم التالي حاملاً أدوية أخرى أكثر تأثيراً سأعمل على تحضيرها في البيت.

عندما خرجت من غرفة المريض أخبرتهم بأن حاله خطرة، عندئذ قصوا عليّ ما حدث له، وقد ساعدني إطلاعي على ظروف الحادث كي أحضر أدوية مفيدة له.

والحمد لله أني نجحت في ذلك بحيث استطاع خلال أيام قليلة أن يعود فيمتطي الحصان.

لقد كان ممتناً جداً لي ووعدني بأن يلبي أي طلب أعرضه عليه.

فلم أطلب سوى أن يعيد ذلك البيت الخاص بالأرمني المتوفى إلى التاجر الكلداني الذي تكلمت عن ظروفه، فأمر بأن يعاد إليه حالاً!

فَرِحَ الملك بدوره عندما سمع بشفاء نسيبه وأراد أن يكرمني بذاته فأخذني إلى حرم اخته خانم أفندي التي أدعت أنها مريضة، فأخبرته بذلك لكي يسمح لي بالدخول إلى الحرم، ولكي تخبر الملك بكل ما حدث.

وهناك أمطرتني السيدة بالأسئلة لتطلع على كل ظروفي ولا سيما عن مدى صحة الخبر الذي شاع عني بأني قررت الرحيل عن بغداد.

كذلك إن كانت الظروف الصعبة التي تمر بها المدينة والضيق الذي يعيشه الناس لقلة المؤون قد أثرت عليّ فجعلتني بحال العوز وإلى الضروريات.

لقد أعجبت جداً ليس فقط من رقة هذه السيدة ورجاحة عقلها، بل من طيبتها، وكنت أعلم بأن الملك كان يجهل كل ما جرى لي، لكنه كان يعلم جيداً بأني كنت أحصل على كل ما أحتاج إليه.

فأجبت السيدة بأني الآن بحال جيدة بفضل صاحب الجلالة ولا أظن

أن أحداً في المدينة يعامل أحسن مني، إذ أن الجميع كانوا في ذلك الزمان يشكون قلة الحنطة.

كان الملك في الحقيقة قد أمر بأن لا ينقصني شيء، كما كان يسعى باجتهاد كبير أن يحصل ذلك لكل الشعب.

فقد رأيته بنفسي يدور متنكراً بزي انكشاري ويذهب ليستفسر من كل واحد من المسؤولين عن مهمة تزويد المدينة بالمواد الغذائية.

وكنت أعلم جيداً بأنه كان يدخل الدكاكين والأسواق ليرى كيف تتم معاملة الناس الفقراء، وما كنت أجهل كيف كان ينزل العقاب الثقيل بأولئك الأشخاص الذين كانوا يغشون عند بيعهم ضروريات العيش أو كانوا يحتكرونها لاستغلال حال النقص في البلد بصورة عامة.

صحة الوالي:

لاحظت في ذلك اليوم عندما اصطحبني الملك إلى الحرم بأنه كان يشكو من لهاث قوي في صدره، ورأيت من طريقه تنفسه أنه يعاني من خلل ما في داخله، ولذلك لابد من أن يصاب بأمر خطير عن قريب... ثم فحصت نبضه فرأيته بطيئاً وواطئاً.

فرأيت من واجبي أن أنبهه إلى ذلك وأن أقول له من باب الحيطة أن يخضع ـ بعد إذنه ـ إلى عملية كيّ مرتين في الأقل....

تقبل تنبيهي له بخصوص صحته بلطف، وأمر حالاً أن تجرى له العلمية التي قلت بأنها ضرورية... ولذلك دعونا الجراح المختص بالكي، وحضرت بنفسي إلى جانبه لكي تجرى تحت أنظاري، ولحسن حظي وفرحي

كان للعملية المذكورة أفضل نتيجة.

لكن هذه العلمية ما استطاعت أن تحول دون موته الذي جرى بعد مغادرتي تلك المدينة التي أردت أن أرحل عنها لكي لا أشهد موته أو أكون من ضحايا موته[1].

التفكير بالسفر:

كنت أبحث عن فرص لأبتعد عن ذلك البلاط برضى الملك وبموافقة سيدات القصر ولما علمت بأن سلفة[2] نصرت خان kan_Nasrat الأفغانية كانت حاملاً وأسقطت جنينها في الشهر الرابع، وإن الخان كان يريد أن أذهب لعلاجها، فحاولت التملص من تلك المهمة بحجة أني كنت مريضاً، وبالفعل كنت طريح الفراش يوم أخبروني بذلك، لكن الأغواني ظن بأني أمتنع عن الذهاب لثأر قديم بيننا وهذه فرصة للانتقام منه؛ لأنه لم يقف إلى جانبي في أيام ضيقي على الرغم من أنه وعد مراراً بمساعدتي.

ولقد تألم من موقفي وامتلأ غيضاً نحوي بعد أن توفيت المريضة المذكورة وأنزوى في البيت أياماً عديدة، وأخيراً حضر لمقابلة الملك وهو في حال يرثى لها، فرحب به الملك وشجعه وسأله عن سبب الكآبة المسيطرة عليه فانفجر ضدي وطرح أمامه كل ما بدر عني قائلاً بأنه لن ينس موقفي ضده وإهانتي له.

---

(١) توفي أحمد باشا في ١٨ تشرين الأول ١٧٤٧ في ناحية المنصورية من أعمال الخالص، ودفن في اليوم التالي في جامع الإمام الأعظم نعمان بن ثابت قرب مرقد أبيه، أنظر السويدي: حديقة الزوراء، ص ٦٠٤-٦٠٥.

(٢) الكلمة المستعملة تعني أخت زوجته أو امرأة أخيه.

نقل ألي بعد ذلك أن الملك قال لبعض أصحابه بعد خروج الرجل: "أرى أننا سوف نخسر الراهب الحكيم".

بعد ذلك بدأت أشعر بضعف موقفي، ولم أشك بما قد يحدث لي لو جرى للملك شيئاً بينما أنا أعالجه، ولذلك تشجعت وطلبت الأذن منه أن أزور القدس؛ لأن السفر قد يريحني ويشفيني من مرضي الذي كنت أشعر بثقله عليّ فأذن لي من دون أية صعوبة، وسمح لي الغياب عن البلاط مدة أربعة أشهر، فعلقت قائلاً بأن هذه المدة تكفي بالكاد للوصول إلى حلب، فمدد رخصة الغياب إلى ثمانية أشهر وقال لي: "عليك ألا تهتم بأي شيء، فإنه سيزودني بكل احتياجاتي".

وبينما كنت أنتظر السائسين، قدم من اسطنبول ططر[1] حاملاً خبراً مفاده أن عثمان باشا قد استرجع النعمة في نظر السلطان، ولذلك أسندت إليه إدارة صيدا، فأراد الملك أن أمضي بصحبته لما بيننا من ود متبادل، ولقد فرح عثمان باشا بدوره وأبدى سروره بالسفر برفقتي.

سفر العودة:

وصل في تلك الأيام ونحن على أهبة السفر الأب أما نسيو Amanzio وكان في طريق عودته إلى أوربا فالتحق بنا.

فبارحنا بغداد يوم سبت النور[2] كما يحتفل به المسيحيون الشرقيون

---

(١) ططر، التتر والتتار: حامل البريد بسرعة من بلد إلى آخر، سمي بذلك لأن العاملين بهذه الخدمة كانوا قديماً من التتر، أنظر الجلبي: كلمات فارسية، ص١٣٨.

(٢) أي عشية أحد القيامة وهو العيد الكبير.

وذلك سنة ١٧٤٦ وهو الأحد الجديد[1] في حسابنا الغربي.

ما كدنا نترك بيتنا ونبتعد عنه قليلاً وإذا بي التقي وجهاً لوجه بسليمان باشا وكان عائداً من البساتين الملكية فتوقف وقال: "إنك تتركنا أيها الأب وأظن أنك لا تريد أن تعود إلى بغداد، ولا أظن أنك تجد مكاناً أفضل منه، ففكر ملياً بما أنت مقدم عليه".

فأجبته: "إن سفري هو ضروري لحالي الصحية السيئة والتي تزداد تدهوراً، فإن تحسنت فلا أظن أني أختار مكاناً أفضل من هنا".

أكملنا سفرنا في البادية حتى الموصل، وحدثت لي في الطريق حوادث عديدة لكنها لا تستحق الذكر، ما عدا ما جرى في اليوم العاشر من سفرنا إذ توقفنا في مكان غير بعيد عن بحيرة من القير، وإذا ببعض الجنود يرمون تبناً مشتعلاً فنشبت النار فوق سطح البحيرة، فكان المنظر مروعاً لانتشار النار وكثافة الدخان فتصورت أمامي منظر جهنم.

وعند طلوع النهار لاحظت أن العصافير التي كانت تحلق فوق ذلك المكان قد تساقطت على الأرض محترقة.

الوصول إلى الموصل:

في اليوم الرابع عشر من سفرنا خيمنا عند أسوار نينوى ورأينا الخنادق والسواتر التي نزل فيها الجيش أيام حصار المدينة من قبل الشاهنشاه قبل سنة، وعلمت بأنه استهلك كمية عظيمة من البارود لأجل ثلاثين ألف

(١) هو الأحد الذي يلي عيد القيامة عند المشارقة: والفرق بينهما أن المشرقيين يتبعون التقويم اليولي بينما يتبع الغربيون التقويم الغريغوري.

ونيف قذيفة أكانت للمدافع أم للقنابل (الهاون؟) التي أطلقها الفرس على المدينة[١]، ولم تستطع أن تخرب شيئاً يذكر اللهم إلا في بعض المواضع من السور[٢].

كانت الطريق الممهدة مليئة ببقايا القنابل، وبالكاد قدرنا أن نسير فيها مع أغراض عثمان باشا، الذي أراد أن يقوم بزيارة والي الموصل المدعو حسين من عائلة عبد الجليل[٣].

كنت قد بقيت في مكاني مع المرافقين بانتظار وصول عثمان باشا الذي بارح بغداد بعدنا مع حملة البريد وأكمل الرحلة في ستة أيام بينما استغرق سفرنا ١٤ يوماً.

في ذلك الوقت الذي أمضيته في الموصل لاحظت أنهم يرممون سبع كنائس تكاد تكون كلها مشيدة على اسم العذراء القديسة مريم[٤]، وإن التجديد يتم على حساب وبأمر السلطان[٥]، إذ كتب له حسين باشا أن

---

(١) إختلفت المصادر في ذكر عدد القذائف التي رماها الفرس على الموصل، أنظر سيار الجميل: حصار الموصل ص ٢٠٠-٢٠١، الهامش ٤٥، الصائغ: تاريخ الموصل ١: ٢٨٤.

(٢) سيار الجميل: حصار الموصل، ص ٢٠١، الصائغ: المرجع نفسه: ص ٢٨٤.

(٣) أنظر الهامش ١٠٢.

(٤) إنها كنيسة العذراء الطاهرة الواقعة قرب السور، وعلى جدارها الخارجي تاريخ يذكر هذا التجديد، أنظر الملحق الثالث.

(٥) كان بناء الكنائس وتجديدها لا يتم إلا بفرمان صادر عن الباب العالي وبرضى وموافقة الوالي، وهذا ما جرى في هذه المناسبة، ولكن ليس على حساب السلطان.

المشهور في المدينة كلها أنه في زمن الحصار شوهدت فوق الأبراج في الجهة المقابلة لمواقع مدافع العدو السيدة مريم أم المسيح وكانت تحول دون وقوع الضرر في المدينة، ولقد شهد بذلك الباشا بالذات الذي التقيت به وتعرفت عليه عندما جاء إلى بغداد.

ولذلك فقد استقبلني بلطف عالٍ عندما زرته في الموصل وقدم لي إحدى تلك الكنائس حسب اختياري إذا ما رغبت البقاء هناك، لكنني أفهمته بأن هذا الشيء غير محبذ حالياً، إذ ليس لي نية البقاء هناك، فشكرته على التفاتته الكريمة وأثنيت على كرمه وقلت له: "إن شاء الله وعدت إلى هذه الديار في يوم من الأيام أنا أو أحد رفاقي فستقبل الهدية".

وهكذا بارحنا الموصل وبعد سفر طويل وصلنا إلى روما في ١٣ تشرين الأول (١٧٤٦) بعد أربعة عشر سنة من بدء رحلتي الثانية إلى الشرق التي سردت أخبارها في هذا الجزء.

وسوف أروي في الجزء الثالث ما جرى لي في الرحلة الثالثة إلى الشرق ولا سيما إلى بلاد ما بين النهرين، وقد بدأت واستعديت لكتابته.

الملحق الأول

أنظر الهامش رقم ٧٩

نادرشاه والكتب المقدسة

لم يكن نادر شاه متديناً ولذلك طلب أن تترجم إلى اللغة الفارسية الكتب المقدّسة: التوراة والإنجيل والقرآن كما ذكر رحالتنا.

أما السيد فليليبو ماريا أحد المهتمين بالترجمة فقد كان أسقف أصفهان، واسمه الأصلي مالاكيزي أبوللونيو Malachisi Apollonio ولد في منطقة ميلانو سنة ١٦٨٨ وانضم إلى الرهبنة الكرملية سنة ١٧٠٧ ثم أرسل إلى إيران ١٧١٦ فخدم في أصفهان حتى انتخب أسقفاً عليها ونال الرسامة في كنيسة الفرنسيسكان في حلب سنة ١٧٣٦ وتوفي في ١٣ آب ١٧٤٩ وكان يعرف الفارسية والأرمنية.

هناك نسخة من الأناجيل المترجمة إلى الفارسية عليها تاريخ ٤ تشرين الثاني ١٧٤١ وعليها توقيع المطران فيليبوماريا أسقف أصفهان، وهي حالياً في خزانة الفاتيكان ـ قسم المخطوطات الفارسية رقم ١٨ (أنظر: فهرس روسي ص ١٧٢).

ورد في مقدمتها أن الذين ساعدوا في الترجمة: محمد معصوم الحسيني وابنه مير عبد الغني أنظر:

Bugnini، A،. La chiesa in Iran، Rome ،١٩٨١pp. ،١٧٩ ،١٤٩ ،٢٩١ ،٤٢٩.

Chich، H،. A chronicle of the carmelits in Parsia and the papal Mission of the XVII-XVII centuries٢ ، voll، London ١٩٣٩ passim.

الملحق الثاني

تابع الهامش ٩٣

بحثت في المراجع المتيسرة لدي عن حادث العثور على ضريح الإمام كما رواه الرحالة نقلاً عن مرافقيه فلم أجد شيئاً، فاتصلت بالصديق د. نصير الكعبي (النجف) استفسر منه عن ذلك فأجابني مشكوراً بالرسالة التالية:

تحية وسلام وبعد

إن أول من أشار إلى قصة الغزال والرشيد حول تعيين قبر الإمام علي هو الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) في كتابه المشهور الإرشاد، ثم قام بعد ذلك مباشرة ابن طاووس في كتابه المختص بتلك الحوادث ومثيلاتها بنقل تلك الرواية بسلسلة سند تتصل بالشيخ المفيد: وفيما يأتي المعلومات الكاملة عن المفيد وكتابه والصفحة التي أشار إليها كتابه لهذه الرواية التي نقلها بحذافيرها ابن طاووس الذي سأرفق إليكم كتابه (فرحة الغري) في الصفحات ١٤٠-١٤١:

المفيد، أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري (ت: ٤١٣هـ): الإرشاد، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢م، ص ١٩-٢٠.

كذلك نقل الرواية نفسها مصنفين آخرين بعد المفيد وابن طاووس وهم على التوالي.

الدميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت ٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٤، ج٢: ص ٢٢٦.

ابن عنبه، جمال الدين أحمد بن علي (ت: ٨٢٨ هـ): عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بغداد: مطبعة الديواني، بدون تاريخ، ص ٦٢.

الديلمي، أبو محمد بن محمد (من أعلام القرن الثامن الهجري): إرشاد القلوب، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، ج٢: ص ٢٦٦.

وهذه القصة مشهورة ومتداولة بين أفواه الناس منذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي، فهي جزء من الثقافة الشعبية عند عموم الناس في مدينة النجف، لذلك نظمت فيها الأشعار، وحيكت حولها الكثير من الأخبار والقصص.

بل أنها قد جسمت على بعض السجاد النادر، وحفظت ضمن مقتنيات ضريح الإمام علي منذ العصر الصفوي، فهناك سجادة معروفة نقشت عليها تفاصيل هذه القصة وقد كانت معروضة للمشاهدة في ضريح الإمام علي.

فما ورد في هذا الباب في دراسة آثارية عالجت مقتنيات ضريح الإمام علي الآتي:

"وبالمشهد الشريف لوحة زيتية ترمز إلى قصة هارون الرشيد في اكتشاف قبر الإمام وتمثل الصورة رسم رجل يرمز إلى الرشيد، وبيده قوس وأمامه غزال وقد وجه نحوه قوسه، ويرجع تاريخ هذه الصورة إلى مدرسة التصوير الصفوية الثانية في القرن الثاني عشر الهجري".

المصدر:

سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف وما فيه من الهدايا والتحف، القاهرة، دار مصر، بدون تاريخ، ص ٢٩.

ويذكر الشيخ جعفر باقر محبوبة صاحب كتاب ماضي النجف وحاضرها، هذه الصورة بالقول: (الصورة كانت في الحضرة المقدسة مما يلي الراس تحت الطاق... وقد قلعت مع الأخشاب المزوقة سنة ١٣٦٤هـ وأعيدت إلى غير مكانها).

المصدر: جعفر محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، النجف، مطبعة الآداب، ١٩٥٨م، الجزء الأول: ص ٤١-٤٢.

ملاحظة: ربما يكون الرحالة الذي تترجمون رحلته إلى العربية قد سمع هذه القصة من الناس أو أنه شاهد تلك اللوحة المعروضة ودون عنها تلك التفاصيل.

(التوقيع)

د. نصير الكعبي

النجف الأشرف ١٤/١٢/٢٠٠٩

الملحق الثالث

تابع الهامش ١٢٨

قال الرحالة عن زيارته للموصل: "في ذلك الوقت الذي امضيته في الموصل لاحظت أنهم يرممون سبع كنائس تكاد كلها تكون مشيدة على اسم العذراء القديسة مريم، وإن التجديد يتم على حساب وبأمر السلطان، إذ كتب له حسين باشا أن المشهور في المدينة كلها أنه في زمن الحصار شوهدت فوق الأبراج في الجهة المقابلة لمواقع مدافع العدو السيدة مريم أم المسيح وكانت تحول دون وقوع الضرر في المدينة".

أقول: إن في الموصل كنائس عديدة عليها كتابات تذكر الترميمات التي جرت عليها في ذلك الزمان، منها:

١- كنيسة الطاهرة (التحتانية) للكلدان:

كانت هذه الكنيسة هدفاً مباشراً للقنابل؛ لأنها مشيدة قرب السور وعلى النهر، فبالتأكيد أصابتها قنابل المهاجمين، ثم تجددت إذ أن هناك كتابة بالكلدانية فوق باب الرجال هذه ترجمتها:

(فلتكن صلاة البتول أم المسيح سوراً لنا وتحفظنا من الشرير، تجددت هذه الكنيسة سنة ٢٠٥٥ لليونان) [= ١٧٤٤ مسيحية][1].

وهناك كتابة كرشونية أي عربية مكتوبة بحرف سرياني - شرقي فوق باب

---

(١) الأب بطرس حداد: الكتابات السريانية في كنائس الموصل، بجلة مجمع اللغة السريانية ٢(١٩٧٦) الرقم ٨ والرقم ١١.

النساء هذا نصها:

(في سنة ألف وسبعمائة وأربع وأربعين مسيحية، تجددت بيعة مارت (أي السيدة) مريم الطوبائية... كانوا واقفين ومجتهدين وصاروا سبب عمارة هذه البيعة والبنية خواجا زكور وكيل

البطريرك مار إيليا، وخواجا عبد الأحد .. وباقي المؤمنين الأغنياء وأهل الصنايع عامية)[1].

٢- كنيسة الطاهرة (العتيقة) في حوش الخان وهي للسريان (الكاثوليك) نجد هذه الكتابة فوق الباب: "في سنة ألف وسبعمائة وأربع وأربعين مسيحية، تجددت بيعة مار مريم الطوباوية في عناية خواجا عيسى وأيضاً القسوس والشمامسة والعامية..."[2]

٣- كنيسة مار توما في محلة الجولاق وهي للسريان (الارثوذكس) فيها كتابة سريانية بحرف أسطرنجيلي ورد فيها: "ولما كان في تاريخ سنة ألف وسبعمائة وأربع وأربعين مسيحية ... قد تعمرت هذه بيعة القديس مار توما الرسولية..."[3]

أما قول الرحالة أن التجديد يتم "على حساب وبأمر السلطان" فلم يرد ذكر ذلك في التقليد الكنسي الموصلي.

ولكن لما كان بناء الكنائس أو تجديدها لا يتم إلا بموافقة السلطان

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) الكتابة رقم ٦٤ والرقم ٦٩.

(٣) الكتابة رقم ٨٥.

وبعد تأييد من الوالي المحلي، فيظهر أن حسين باشا الجليلي لما رأى استماتة الموصليين من مسلمين ومسيحيين في الدفاع عن مدينتهم دفعته الغيرة والواجب الاجتماعي للسعي في اسطنبول إلى نيل رضى الباب العالي لتجديد الكنائس.

أما نفقات التجديد فقد كانت من المسيحيين أنفسهم فالكتابات التي ذكرناها تقول صراحة: .. كانوا واقفين ومجتهدين وصاروا سبب عمارة هذه البيعة خواجا زكور... وخواجا عبد الأحد.. وباقي الأغنياء..) (الكتابة ١١).

وفي الكتابة الأخرى يرد: .. في عناية خواجا عيسى وأيضاً القسوس والشمامسة والعامية (الكتابة رقم ٦٤).

كما أن المسيحيين في الموصل كانوا في ذلك العهد وإلى منتصف القرن العشرين مختصين بأعمال البناء، فمنهم: الحراق الذي يعد كور الجص ويدقه.

والمعلان وهو المقاول المسؤول عن العمال.

والحجار والنقار والجبال.وأخيراً البناء المتخصص (الأسطة). ولذلك ورد في الكتابة الأولى (أهل الصنايع عامية)[1].

(١) الصائغ: تاريخ الموصل ٣: ١٣٠، الأب يوسف حبي: الدير الأعلى وكنيسة الطاهرة، الموصل ١٩٦٩، فيه (الأب جان موريس)، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو، بغداد ٢٠٠٠ في مطاويه، الصائغ (كوركيس بن زكريا): رسالة احتجاج، تحقيق الأب بطرس حداد، بغداد ٢٠٠٩، ص ٥-٦.

فهارس الكتاب

١- فهرس المراجع.

٢- فهرس الكتاب.

١- فهرس المراجع

بابيه. المطران عمانوئيل: مقتطفات من تقرير بابيه عن العراق، مجلة بين النهرين، (١٩٨٣)، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٨.

تافرنيه: العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ـ ١٩٤٤.

الجميل: د. سيار علي: حصار الموصل الصراع الأقليمي واندحار نادر شاه، صفحة لامعة في تكوين العراق الحديث. الموصل ـ ١٩٩٩.

حداد، الأب بطرس: كنائس بغداد ودياراتها، بغداد ـ ١٩٩٤.

الحسني، عبد الرزاق: العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١.

الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ط. ويستنفيلد.

سركيس، يعقوب: مباحث عراقية، ج١ (بغداد ١٩٤٨) ج٢ (بغداد ١٩٥٥).

السويدي، عبد الرحمن عبد الله: حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ٢٠٠٣.

صائغيات، دير نرسيس: تاريخ كنائس الطائفة الكلدانية في بغداد، مجلة النور ١ (١٩٥٠) ع١١ ص ٧-١١، ع١٢ ص ٥-١٠، ٢ (١٩٥١) ص ٢٣-٢٧ و ٨٦-٩٠و ١٣٥-١٣٧.

الصائغ، القس سليمان: تاريخ الموصل ١ (١٩٢٣) ٢ (١٩٢٨).

العزاوي، المحامي عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، بغداد ١٩٥٣: العزاوي، المحامي عباس، تاريخ النقود العراقية، بغداد ١٩٥٨.

العمري، سعاد هادي: بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة، بغداد ـ ١٩٥٤.

الكركوكلي، الشيخ حاوي: دوحة الوزراء، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس، بيروت ـ بلا تاريخ.

الكرملي، الأب انستاس: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩.

لونكريك، ستيفن همسلي: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، بغداد ـ ١٩٦٨.

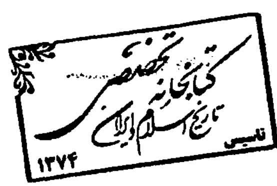
محبوبة، جعفر بن الشيخ باقر آل محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٥٣هـ.

نصري، القس بطرس: ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، الموصل ١ (١٩٠٥) ٢ (١٩١٣).

نيبور: رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ١٩٥٤.

..........: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥، ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ـ ١٩٥٥.

المحتويات



کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تاسیس
۱۳۷۴

هذا الكتاب:

يعد كتاب **معرفة الشرق في العصر العثماني** من النصوص الرحلية التي اختزنت في داخلها جملة من المعارف والأخبار على مستويات متعددة في العصر العثماني فهي تكاد تكون عين التقطت العديد من الزوايا للعراق إبان ذلك العصر فمن الممكن أن يجد فيها أرشفة للواقع الاجتماعي والسياسي وحتى الاقتصادي والديني، الذي يميز هذه الرحلة من غيرها إنها ترجمة عن الإيطالية وقلما يترجم نص عن هذه اللغة، ومما يضاعف أهميتها أن مترجمها (**الأب بطرس حداد**) إحترف ومنذ وقت طويل قبل وفاته نصوص الرحالة إلى العراق.

